البَـابُ الأولُ

العمل وماورد فيه

ولما كان علم التصوف إنما هو نتائج الأعمال الصحيحة وثمرات الأحوال الصافية ، « من عمل بما عَلِم أورته الله علم ما لم يعلم » بدأ بالكلام على العمل فقال .

[**من علامة الاعتماد على العمل ، نقصان الرجاء عند وجود الزلل**] .

الاعتماد على الشيء : هو الاستناد عليه والركون إليه ، والعمل : حركة الجسم أو القلب ، فإن تحرك بما يوافق الشريعة سمى طاعة ، وإن تحرك بما يخالف الشريعة سمى معصية .

والأعمال عند أهل الفن على ثلاثة أقسام : عمل الشريعة ، وعمل الطريقة ، وعمل الحقيقة . أو تقول : عمل الإسلام وعمل الإيمان وعمل الإحسان . أو تقول : عمل العبادة ، وعمل العبودية ، وعمل العبودة : أى الحرية . أو تقول : عمل أهل البداية ، وعمل أهل الوسط وعمل أهل النهاية .

فالشريعة : أن تعبده ، والطريقة : أن تقصده ، والحقيقة : أن تشهده . أو تقول : الشريعة لإصلاح الظواهر ، والطريقة لإصلاح الضمائر ، والحقيقة لإصلاح السرائر .

وإصلاح الجوارح بثلاثة أمور : بالتوبة والتقوى والاستقامة . وإصلاح القلوب بثلاثة أمور : بالإخلاص والصدق والطمأنينة . وإصلاح السرائر ، بثلاثة أمور : بالمراقبة والمشاهدة والمعرفة .

أو تقول : إصلاح الظواهر باجتناب النواهى ، وامتثال الأوامر . وإصلاح الضمائر بالتخلية من الرذائل والتحلية بأنواع الفضائل . وإصلاح السرائر وهى هنا الأرواح : بذلها وانكسارها ، حتى تتهذب وترتاض بالأدب والتواضع وحسن الخلق .

واعلم أن الكلام هنا إنما هو فى الأعمال التى توجب تصفية الجوارح أو القلوب أو الأرواح ، وهى ماتقدم تعيينها لكل قسم . وأما العلوم والمعارف : فإنما هى ثمرات التصفية والتطهير ، فإذا تطهرت الأسرار ملئت بالعلوم والمعارف والأنوار ، ولايصح الانتقال إلى مقام حتى يحقّق ماقبله . فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، فلا ينتقل إلى عمل الطريقة حتى يحقق عمل الشريعة وترتاض جوارحه معها ، بأن يحقق التوبة بشروطها ويحقق التقوى بأركانها ، ويحقق الاستقامة بأقسامها ، وهى متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى أقواله ، وأفعاله ، وأحواله ، فإذا تزكّى الظاهر وتنوَّر بالشريعة انتقل من عمل الشريعة الظاهرة إلى عمل الطريقة الباطنة ، وهى التصفية من أوصاف البشرية على مايأتى .

فإذا تطهرت من أوصاف البشرية تحلى بأوصاف الروحانية وهى الأدب مع الله فى تجلياته التى هى مظاهره ، فحينئذ ترتاح الجوارح من التعب وما بقى إلا حسن الأدب .

قال بعض المحققين : من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يَفْتر عن العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل بسوى الله ، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله اهـ .

الاعتماد فى الأعمال

ولايعتمد المريد فى سلوك هذه المقامات على نفسه ولاعلى عمله ولاعلى حوله وقوته ، وإنما يعتمد على فضل ربه وتوفيقه وهدايته وتسديده . قال تعالى : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ ويَختارُ ، مَا كانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ)[1] وقال تعالى : (وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَافَعَلُوهُ)[2] . (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ)[3] .

وقال صلى الله عليهِ وَسَلَم : « لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمُ الْجَنَّةَ بعَمَلِهِ ، قَالُوا :

---

(١) القصص الآية : ٦٨ .

(٢) الأنعام الآية : ١١٢ .

(٣) هود الآية : ١١٨ .

وَلا أنْتَ يارَسولَ الله ؟ قَالَ : وَلا أنَا إلَّا أنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ » .

فالاعتماد على النفوس من علامة الشقاء والبؤس ، والاعتماد على الأعمال من عدم التحقق بالزوال ، والاعتماد على الكرامة والأحوال من عدم صحبة الرجال ، والاعتماد على الله من تحقق المعرفة بالله . وعلامة الاعتماد على الله أنه لاينقص رجاؤه إذا وقع فى العصيان ، ولايزيد رجاؤه إذا صدر منه إحسان .

أو تقول : لايعظم خوفه إذا صدرت منه غفلة كما لايزيد رجاؤه إذا وقعت منه يقظه ، قد استوى خوفه ورجاؤه على الدوام ، لأن خوفه ناشئ عن شهود الجلال ، ورجاؤه ناشئ عن شهود الجمال ، وجلال الحق وجماله لايتغيران بزيادة ولانقصان ، فكذا ماينشأ عنهما ، بخلاف المعتمد على الأعمال ، إذا قل عمله قل رجاؤه ، وإذا كثر عمله كثر رجاؤه لشركه مع ربه وتحققه بجهله ، ولو فنى عن نفسه وبقى بربه لاستراح من تعبه وتحقق بمعرفة ربه ، ولابد من شيخ كامل يخرجك من تعب نفسك إلى راحتك بشهود ربك . فالشيخ الكامل هو الذى يريحك من التعب لا الذى يدلك على التعب .

من دلك على العمل فقد أتعبك ، ومن دلّك على الدنيا فقد غشك ، ومن دلك على الله فقد نصحك ، كما قال الشيخ ابن مشيش رضى الله عنه .

والدلالة على الله هى الدلالة على نسيان النفس ، فإذا نسيت نفسك ذكرت ربك . قال تعالى : (وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذَا نَسِيتَ)[1]

أى ماسواه ، وسبب التعب هو ذكر النفس والاعتناء بشئونها وحظوظها . وأما من غاب عنها فلا يلقى إلا الراحة .

وأما قوله تعالى : (لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فى كَبَد)[2] .

أى فى تعب ، فهو خاص بأهل الحجاب . أو تقول خاص بإحياء النفوس ، وأما من مات فقد قال الله تعالى فيه :

---

(١) الكهف الآية : ٢٤ .

(٢) البلد الآية : ٤ .

(فَأَمَّا إِنْ كانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ . فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ)[١]

أى فروح لوصال ، وريحان لجمال ، وجنة لكمال . وقال تعالى :

(لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ)[٢] .

أى تعب ، ولكن لاتدرَك الراحة إلا بعد التعب ، ولايحصل الظفَر إلا بالطلب .

« حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ » .

أَيُّهَا الْعَاشِقُ مَعْنَى حُسْنِنَا ... مَهْرُنَا غَالٍ لِمَنْ يَخْطُبُنَا
جَسَدٌ مُضْنًى وَرُوحٌ فى الْعَنَا ... وَجُفُونٌ لاتَذُوقُ الْوَسَنَا
وَفُؤَادٌ لَيْسَ فِيهِ غَيْرُنَا ... وَإِذَا مَا شِئْتَ أَدِّ الثَّمَنَا
فَافْنَ إِنْ شِئْتَ فَنَاءً سَرْمَدًا ... فَالفَنَا يُدْنى إِلَى ذَاكَ الْفِنَا
وَاخْلَعِ النَّعْلَيْنِ إِنْ جِئْتَ إِلَى ... ذٰلِكَ الْحَيِّ فَفِيهِ قُدْسُنَا
وَعَنِ الْكَوْنَيْنِ كُنْ مُنْخَلِعًا ... وَأَزِلْ مَا بَيْنَنَا مِنْ بَيْنِنَا
وَإِذَا «ما»[٣] قِيلَ مَنْ تَهْوَى فَقُلْ ... أَنَا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنَا

عقبات فى الطريق

وقال فى حل الرموز : ثم اعلم أنك لاتصل إلى منازل القرُبات ، حتى تقطع ست عقبات :

العقبة الأولى: فطم الجوارح عن المخالفات الشرعية .
العقبة الثانية: فطم النفس عن المألوفات العادية .
العقبة الثالثة: فطم القلب عن الرعونات البشرية .

---

(١) سورة الواقعة : ٨٨ ، ٨٩ . (٢) الحجر الآية : ٤٨ .
(٣) ما ساقطة من الأصل وبها يستقيم الوزن .

العقبة الرابعة: فطم النفس عن الكدورات الطبيعية .
العقبة الخامسة: فطم الروح عن البخورات الحسية .
العقبة السادسة: فطم العقل عن الخيالات الوهمية .

فتشرف من العقبة الأولى على ينابيع الحكم القلبية ، وتطلع من العقبة الثانية على أسرار العلوم اللدنية ، وتلوح لك فى العقبة الثالثة أعلام المناجاة الملكوتية ، ويلمع لك فى العقبة الرابعة أنوار المنازلات القربية ، وتطلع لك فى العقبة الخامسة أنوار المشاهدات الحبية ، وتهبط من العقبة السادسة على رياض الحضرة القدسية ، فهنالك تغيب بما تشاهده من اللطائف الأنسية عن الكثائف الحسية ، فإذا أرادك لخصوصيته الاصطفائية ، سقاك بكأس محبته شربة تزداد بتلك الشربة ظمأ ، وبالذوق شوقًا ، وبالقرب طلبًا ، وبالسكر قلقًا اهـ المراد منه .

تتميم : أشكل على بعض الفضلاء قوله تعالى :

(ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ)[1] مع قوله صلى الله عليه وسلم : « لَنْ يَدْخُلَ أَحَدُكُمُ الْجَنَّةَ بِعَمَلِهِ » الحديث .

والجواب : أن الكتاب والسنة وردا بين شريعة وحقيقة .

أو تقول بين تشريع وتحقيق ، فقد يشرّعان فى موضع ويحققان فى آخر فى ذلك الشىء بعينه ، وقد يحققان فى موضع ويشرعان فيه فى آخر ، وقد يشرع القرآن فى موضع وتحققه السنة ، وقد تشرع السنة فى موضع ويحققه القرآن فالرسول عليه الصلاة والسلام مبين لما أنزل الله . قال تعالى :

(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ)[2] .

فقوله تعالى : (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) هذا تشريع لأهل الحكمة وهم أهل الشريعة ، وقوله صلى الله عليه وسلم « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » هذا تحقيق لأهل القدرة وهم أهل الحقيقة ، كما أن قوله تعالى : (وَمَا تَشَاءونَ إِلّا أَنْ يَشَاء الله)[3] تحقيق .

---

(١) النحل الآية : ٣٢ .
(٢) النحل الآية : ٤٤ .
(٣) سورة الإنسان الآية : ٣٠ .

وقوله صلى الله عليه وسلم :

« إِذَا هَم أَحَدُكُمُ بِحَسَنَةٍ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة » تشريع .

والحاصل أن القرآن تقيده السنة ، والسنة يقيدها القرآن ، فالواجب على الإنسان أن تكون له عينان :

إحداهما تنظر إلى الحقيقة ، والأخرى تنظر إلى الشريعة ، فإذا وجد القرآن قد شرّع فى موضع فلابد أن يكون قد حقق فى موضع آخر ، أو تحققه السنة ، وإذا وجد السنة قد شرعت فى موضع فلابد أن تكون قد حققت فى موضع آخر أو حققها القرآن ، ولاتعارض حينئذ بين الآية والحديث ، ولا إشكال .

وهنا جواب آخر : وهو أن الله تعالى لما دعا الناس إلى التوحيد والطاعة علم أنهم لايدخلون فيه من غير طمع فوعدهم بالجزاء على العمل ، فلما رسخت أقدامهم فى الإسلام أخرجهم عليه الصلاة والسلام من ذلك الحرف ورقّاهم إلى إخلاص العبودية والتحقق بمقام الإخلاص ، فقال لهم : « لن يدخل أحدكم الجنة بعمله » والله تعالى أعلم ، وهنا أجوبة لأهل الظاهر لاتجدى شيئًا .

ولما كان الانتقال من عمل الظاهر إلى عمل الباطن لابد أن يظهر أثره على الجوارح قال تعالى : (إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا)[1] الآية .

التجريد :

وهو ظهور الأثر أشار إليه بقوله :

[إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك فى التجريد انحطاط عن الهمة العلية] .

قلت : التجريد فى اللغة : هو التكشيط والإزالة ، تقول جردت الثوب ، أزلته عنى وتجرد فلان أزال ثوبه ، وجردت الجلد أزلت شعره .

وأما عند الصوفية فهو على ثلاثة أقسام : تجرد الظاهر فقط ، أو الباطن

---

(١) سورة النمل الآية : ٣٤ .

فقط ، .أو هما معًا . فتجريد الظاهر : هو ترك الأسباب الدنيوية ، وخرق العوائد الجسمانية . والتجريد الباطنى : هو ترك العلائق النفسانية ، والعوائق الوهمية . وتجريدهما معًا : هو ترك العلائق الباطنية ، والعوائد الجسمانية .

أو تقول : تجريد الظاهر هو ترك كل مايشغل الجوارح عن طاعة الله ، وتجريد الباطن هو ترك كل مايشغل القلب عن الحضور مع الله ، وتجريدهما هو إفراد القلب والقالب لله . والتجريد الكامل فى الظاهر : هو ترك الأسباب ، وتعرية البدن من معتاد الثياب . وفى الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم ، وتحليته بكل وصف كريم ، وهو : أى التجريد الكامل الذى أشار إليه شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن المجذوب بقوله :

أَقَارِئِينَ عِلْمَ التَّوْحِيدِ هُنَا الْبُحُورُ إِلَىَّ تُنْبِي
هٰذَا مَقَامُ أَهْلِ التَّجْرِيد الْوَاقِفِينَ مَع رَبِى

وأما من جرد ظاهره دون باطنه فهو كذاب ، كمن كسا النحاس بالفضة ، باطنه قبيح وظاهره مليح ، ومن جرد باطنه دون ظاهره إن تأتَّى ذلك فهو حسن ، كمن كسا الفضة بالنحاس وهو قليل ، إذ الغالب أن من تنشّب ظاهره تنشّب باطنه ومن اشتغل ظاهره بالحس اشتغل باطنه به ، والقوة لاتكون فى الجهتين ، ومن جمع بين تجريدى الظاهر والباطن فهو الصديق الكامل ، وهو الذهب المشحر[1] الصافى الذى يصلح لخزانة الملوك .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : آداب الفقير المتجرد أربعة : الحرمة للأكابر ، والرحمة للأصاغر ، والإنصاف من نفسك ، وعدم الانتصار لها .

وآداب الفقير المتسبب أربعة : موالاة الأبرار ، ومجانبة الفجار ، وإيقاع الصلاة فى الجماعة ، ومواساة الفقراء والمساكين بما يُفتح عليه . وينبغى له أيضا أن يتأدب بآداب المتجردين ، إذ هو كمال فى حقه .

ومن آداب المتسبب إقامته فيما أقامه الحق تعالى فيه من فعل الأسباب ، حتى

---

(١) المشحر : الذى جعل رقائق أو صفائح .

يكون الحق تعالى هو الذى ينقله منها على لسان شيخه إن كان ، أو بإشارة واضحة كتعذرها من كل وجه ، فحينئذ ينتقل للتجريد ، فإرادته التجريد مع إقامته تعالى له فى الأسباب هو الشهوة الخفية ، لأن النفس قد تقصد بذلك الراحة ولم يكن لها من اليقين ماتحمل به مشاق الفاقة ، فإذا نزلت بها الفاقة نزلت واضطربت ورجعت إلى الأسباب ، فيكون أقبح لها من الإقامة فيها ، فهذا وجه كونها شهوة ، وإنما كانت خفية لأنها فى الظاهر أظهرت الانقطاع والتبتل ، وهو مقام شريف ، وحال منيف ، لكنها فى الباطن أخفت حظها من قصد الراحة أو الكرامة أو الولاية أو غير ذلك من الحروف ، ولم تقصد تحقيق العبودية وتربية اليقين ، وفاتها أيضًا الأدب مع الحق ، حيث أرادت الخروج بنفسها ولم تصبر حتى يؤذن لها . وعلامة إقامتها فيها دوامها له مع حصول النتائج ، وعدم العوائق القاطعة له عن الدين . وحصول الكفاية بحيث إذا تركها حصل له التشوف إلى الخلق والاهتمام بالرزق ، فإذا انخرمت هذه الشروط انتقل إلى التجريد .

قال فى التنوير : والذى يقتضيه الحق منك أن تمكث حيث أقامك ، حتى يكون الحق تعالى هو الذى يتولى إخراجك كما تولى إدخالك ، وليس الشأن أن تترك السبب بل الشأن أن يتركك السبب .

قال بعضهم : تركت السبب كذا وكذا مرة فعدت إليه فتركنى السبب فلم أعد إليه . قال : ودخلت على الشيخ أبى العباس المرسى وفى نفسى العزم على التجريد قائلا فى نفسى[1] : إن الوصول إلى الله تعالى على هذه الحالة التى أنا عليها بعيد من الاشتغال بالعلم الظاهر ووجود المخالطة للناس ، فقال لى من غير أن أسأله صحبنى إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدِّر فيها فذاق من هذا الطريق شيئًا ، فجاء إلى فقال لى : ياسيدى أخرج عما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك ؟ فقلت له ليس الشأن ذا ، ولكن امكث فيما أنت فيه وما قسم الله لك على أيدينا فهو لك واصل ، ثم قال الشيخ ونظر إلىّ : وهكذا شأن الصديقين ، لايخرجون من شىء حتى يكون الحق سبحانه هو الذى يتولى إخراجهم ،

---

(١) هذا الكلام للشيخ ابن عطاء الله .

فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى ، ووجدت الراحة بالتسليم إلى الله تعالى ، ولكنهم كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« هُمُ الْقَوْمُ لايَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ » اهـ .

قال رضى الله عنه : إنما منعه من التجريد لشرَهِ نفسه إليه ، والنفس إذا شرِهت للشىء كان خفيفًا عليها ، والخفيف عليها لاخير فيه ، وماخف عليها إلا لحظٍّ لها فيه ، ثم قال : فلا يتجرد المريد فى حال القوة حتى تفوت إن أراد أن يستفيد نفسه ، فإن جردها فى حال القوة أتاه الضعف فيعقبه الخصمان ويشوشونه ويفتنونه ، وربما إذا لم يدركه المولى بلطفه سامح فى الخلطة ، ويرجع إلى ماخرج منه حتىٍ يسىء ظنه بأهل التجريد ويقول ليسوا على شىء كلنا دخلنا البلد وما رأينا شيئا ، والذى يثقل عليه التجريد أولا هو الذى ينبغى له أن يتجرد ، لأنه ماثقل عليها إلا حيث تحققت أن عنقها تحت السيف مهما حرك يده قطع أوداجها . انتهى المقصود منه .

وأما المتجرد إذا أراد الرجوع إلى الأسباب من غير إذن صريح فهو انحطاط من الهمة العلية إلى الهمة الدنية ، أو سقوط من الولاية الكبرى إلى الولاية الصغرى :

قال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : قال لى شيخى سيدى العربى : ياولدى لو رأيت شيئًا أعلى من التجريد وأقرب وأنفع لأخبرتك به ، ولكن هو عند أهل هذه الطريقة بمنزلة الإكسير الذى قيراط منه يغلب مابين الخافقين ذهبًا ، كذلك التجريد فى هذه الطريق اهـ .

وسمعت شيخ شيخنا رضى الله عنه يقول : معرفة المتجرد أفضل ، وفكرته أنصع ، لأن الصفا من الصفاء والكدَر من الكدر ، صفاء الباطن من صفاء الظاهر ، وكدر الباطن من كدر الظاهر ، وكلما زاد فى الحس نقص فى المعنى .

وفى بعضٍ الأخبار : إذا أخذ العالم شيئًا من الدنيا نقصت درجته عند الله وإن كان كريمًا على الله . وأما من أذن له فى السبب فهو كالمتجرد إذا صار حينئذ سببه عبودية .

والحاصل : أن التجريد من غير إذن سبب والسبب مع الإذن تجريد ، وبالله التوفيق .

تنبيه : هذا الكلام كله مع السائرين ، وأما الواصلون المتمكنون فلا كلام عليهم ، إذ هم رضى الله عنهم مأخوذون عن أنفسهم ، يُقْبَضون من الله ويُدفَعون بالله ، قد تولى الحق تعالى أمورهم ، وحفظ أسرارهم ، وحرس قلوبهم بجنود الأنوار ، فلا تؤثر فيها ظُلَم الأغيار ، وعليه يحمل حال الصحابة فى الأسباب رضى الله عنهم ونفعنا ببركاتهم آمين .

واعلم أن المتسبب والمتجرد عاملان لله ، إذ كل واحد منهما حصل له صدق التوجه إلى الله تعالى حتى قال بعضهم : مثل المتجرد والمتسبب كعبدين للملك ، قال لأحدهما اعمل وكل ، وقال للآخر الزم أنت حضرتى وأنا أقوم لك بقسمتى ، ولكن صدق التوجه فى المتجرد أقوى لقلة عوائقه وقطع علائقه كما هو معلوم .

ولما كانت همة الفقير المتجرد لاتخطئ فى الغالب ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ للهِ رِجَالاً لَوْ أَقْسَمُوا عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُمْ فى قَسَمِهِمْ » .

قال شيخنا : ولله رجال إذا اهتموا بالشىء كان بإذن الله . وقال أيضًا عليه الصلاة والسلام : « اتقُوا فِراسَةَ المؤمِنِ فإنّهُ ينظر بِنُورِ اللهِ » .

الهمم والمقادير

خشى الشيخ أن يتوهم أحد أن الهمة تخرق سور القدر وتفعل ما لم يجر بِه القضاء والقدر ، فرفع ذلك بقوله :

[سوابق الهمم لاتخرق أسوار الأقدار] .

قلت السوابق : جمع سابقة ، وهى المتقدمة . والهمم : جمع همة ، والهمة : قوة انبعاث القلب فى طلب الشىء والاهتمام به ، فإن كان ذلك الأمر رفيعًا كمعرفة الله وطلب رضاه سميت همة عالية ، وإن كان أمرًا خسيسًا كطلب الدنيا وحظوظها سميت همة دنية ، وسوابق الهمم من إضافة الموصوف إلى الصفة : أى

الهمم السوابق لاتخرق أسوار الأقدار : أى إذا اهتم العارف أو المريد بشىء وقويت همته بذلك ، فإن الله تعالى يكون ذلك بقدرته فى ساعة واحدة حتى يكون أمره بأمر الله .

وكان شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : المريد الصادق إذا كان فانيًا فى الاسم مهما اهتم بالشىء كان ، وإن كان فانيًا فى الذات تكون الشىء الذى يحتاجه قبل أن يهتم به ، أو كلام هذا معناه ، وهو صحيح .

وفى بعض الأخبار « يقولُ الله تعالى : عَبْدِى ، أَنَا الله الّذى أَقُولُ للشّىء كُنْ فَيَكُونُ ، فَأَطِعْنِى أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشىْء كُنْ فَيَكُونُ »

وفى الحديث الصحيح أيضًا : « فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ لَهُ سَمْعًا وَبَصَرًا ويَدًا ومُؤَيِّدًا ، إِنْ سَأَلِنى أعطَيْتُهُ » الحديث .

ومع ذلك لاينفصل بذلك ولايتكون إلا ما أحاط به قدر الله وقضاؤه ، فهمة العارف تتوجه للشىء ، فإن وجدت القضاء سبق به كان ذلك بإذن الله ؛ وإن وجدت سور القدر مضروبًا عليه لاتخرقه ، بل تتأدب معه وترجع لوصفها وهى العبودية ، فلا تتأسف ولاتحزن ، بل ربما تفرح لرجوعها ولمحلها وتحققها بوصفها .

وقد كان شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه يقول : نحن إذا قلنا شيئًا فخرج فرحنا مرة واحدة ، وإذا لم يخرج فرحنا عشر مرات وذلك لتحققه بمعرفة الله .

قيل لبعضهم : بماذا عرفت ربك ؟ قال بنقض العزائم .

وقد يحصل هذا التأثير للهمة القوية وإن كان صاحبها ناقصًا كما يقع للعاين والساحر عن خبثها ، أو لخاصية جعلها الله فيها إذا نظرا لشىء بقصد انفعل ذلك بإذن الله ، وهذا كله أيضًا لايخرق أسوار الأقدار ، بل لايكون إلا ما أراد الواحد القهار . قال تعالى :

(وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ به مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله)[1] وقال تعالى : (إِنَّا كُلَّ

---

(١) البقرة : ١٠٢ .

شَىْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)[١] وقال تعالى : (وَمَا تَشَاءونَ إلَّا أنْ يَشَاءَ الله)[٢] وقال صلى الله عليه وسلم : « كُلُّ شَىْء بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ حَتّى الْعَجْزُ وَالْكَيْسُ » .

أى النشاط للفعل ، وأشعر قوله سوابق أن الهمم الضعيفة لاينفعل لها شىء وهو كذلك فى الخير والشر ، وفى استعارته الخرق والأسوار مايشعر بالقوة فى الجانبين ، لكن الحاصر قاهر فلا عبرة بقوة العبد القاصر .

وإذا كانت الهمة لاتخرق أسوار الأقدار فما بالك بالتدبير والاختيار الذى أشار إليه بقوله .

التدبير

[أرح نفسك من التدبير ، فما قام به غيرك عنك لاتقم به أنت لنفسك] .

قلت : التدبير فى اللغة : هو النظر فى الأمور وأواخرها . وفى الاصطلاح : هو كما قال الشيخ زروق رضى الله عنه : تقدير شئون يكون عليها فى المستقبل بما يخاف أو يرجى بالحكم لا بالتفويض ، فإن كان مع تفويض وهو أخروىّ فنية خير ، أو طبيعى فشهوة ، أو دنيوى فأمنية اهـ .

فاقتضى كلامه أن التدبير على ثلاثة أقسام : قسم مذموم ، وقسم مطلوب ، وقسم مباح . فأما القسم المذموم : فهو الذى يصحبه الجزم والتصميم سواء كان دينيًّا أو دنيويًّا لما فيه من قلة الأدب وما يتعجله لنفسه من التعب ، إذ ماقام به الحى القيوم عنك لاتقوم به أنت عن نفسك ، وغالب ماتدبره لنفسك لاتساعده رياح الأقدار ، وتعقبه الهموم والأكدار ، ولذلك قال أحمد بن مسروق : « من ترك التدبير فهو فى راحة » . وقال سهل بن عبد الله : « ذروا التدبير والاختيار ، فإنهما يكدران على الناس عيشهم » . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) القمر : ٤٩ .

(٢) الإنسان : ٣٠ .

« إنَّ اللهَ جَعَلَ الرَّوْحَ وَالرَّاحَةَ فى الرِّضَا وَالْيَقِينِ » .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : لاتختر من أمرك شيئًا ، واختر ألا تختار ، وفر من ذلك المختار ، ومن فرارك ، ومن كل شىء إلى الله تعالى : (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَيَختارُ)[1] اهـ .

وقالم أيضًا : إن كان ولابد من التدبير فدبر ألا تدبر ، وقيل : من لم يدبر دُبّر له . وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : من أوصاف الولى الكامل ألا يكون محتاجًا إلا إلى الحال الذى يقيمه مولاه فى الوقت ، يعنى ماله مراد إلا مايبرز من عنصر القدرة اهـ . فكلام هؤلاء السادات محمول على ما إذا كان بالنفس مع الجزم ، وأما ما كان مع التفويض فليس بمذموم مالم يطُل .

وأما القسم المطلوب ، فهو تدبير ماكلفت به من الواجبات ، ومانديت إليه من الطاعات ، مع تفويض المشيئة والنظر إلى القدرة ، وهذا يسمى النية الصالحة . وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« نِيَّةُ المؤمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ » .

وقال أيضًا حاكيًا عن الله سبحانه :

« إذَا هَمَّ عَبْدِى بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً كامِلَة » الحديث .

وهذا مفهوم قول الشيخ فما قام به غيرك ، إذ مفهومه أن مالم يقم به عنك وهو الطاعة لايضرك تدبيره ، ولذلك قال إبراهيم الخواص رضى الله عنه : العلم كله فى كلمتين : لاتتكلف ماكُفِيتَ ، ولاتضيّع ما استُكفِيتَ ، فقوله لاتتكلف ماكفيت هو القسم الأول المذموم ، وقوله ولاتضيع ما استكفيت هو القسم الثانى المطلوب .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : وكل مختارات الشرع وترتيباته ليس لك منه شىء إنما هو مختار الله لك واسمع وأطع ، وهذا محل الفقه الربانى والعلم

---

(١) القصص : ٦٨ .

الإلهامى ، وهو أرض لتنزل علم الحقيقة المأخوذة عن الله تعالى لمن استوى اهـ . وقوله لمن استوى : أى كمل عقله وتمت معرفته واستوت حقيقته مع شريعته ، لكن لاينبغى الاسترسال معه فيشغله عن الله .

وأما القسم المباح : فهو التدبير فى أمر دنيوى أو طبيعى ، مع التفويض للمشيئة والنظر لما يبرز من القدرة ، غير معول على شىء من ذلك ؛ وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : « التَّدْبِيرُ نِصْفُ الْعَيْشِ » .

بشرط ألا يردده المرة بعد المرة ، فالقدر المباح منه هو مروره على القلب كالريح يدخل من طاق ويخرج من أخرى ، وهذا هو التدبير بالله ، وهو شأن العارفين المحققين .

وعلامة كونه بالله أنه إذا برز من القدرة عكس مادبر لم ينقبض ولم يضطرب ، بل يكون كما قال الشاعر :

سَلِّمْ لِسَلْمَى وَسِرْ حَيثُ سَارَتْ
وَاتْبَعْ رِيَاحَ الْقَضَا وَدُرْ حَيْثُ دَارَتْ

وقال فى التنوير : فائدة . اعلمْ أن الأشياء إنما تذم وتمدح بما تؤدى إليه . فالتدبير المذموم ماشغلك عن الله ، وعطلك عن القيام بخدمة الله ، وصدك عن معاملة الله . والتدبير المحمود هو الذى يؤديك إلى القرب من الله ويوصلك إلى مرضاة الله ، انظر بقية كلامه : فهذا تحرير ماظهر لى فى شأن التدبير . وقد ألف الشيخ رضى الله عنه فيه كتابا سماه « **التنوير فى إسقاط التدبير** » أحسن فيه وأجاد ، ومرجعه إلى ماذكرنا ، والله تعالى أعلم ، ولما كمله اطلع عليه الولى الكامل سيدى ياقوت العرشى . فلما طالعه قال له جميع ماقلت مجموع فى بيتين ، وهما هاتان :

مَا ثَمَّ إلا مَا أَرَادْ فَاتْرُكْ هُمُومَكَ وَانْطَرِحْ
وَاتْرُكْ شَوَاغِلَكَ التى شُغِلْتَ بِهَا تَسْتَرِحْ

ولما كان الانهماك فى التدبير والاختيار يدل على انطماس البصيرة ، وتركهما أو فعلهما بالله يدل على فتح البصيرة ذكر علامة أخرى أظهر وأشهر منهما على فتح البصيرة أو طمسها فقال :

[اجتهادك فيما ضمن لك وتقصيرك فيما طلب منك ، دليل على انطماس البصيرة منك] .

قلت : الاجتهاد فى الشىء استفراغ الجهد والطاقة فى طلبه ، والتقصير : هو التفريط والتضييع ، والبصيرة ناظر القلب ، كما أن البصر ناظر القالب ، فالبصيرة لاترى إلا المعانى ، والبصر لايرى إلا المحسوسات ، أو تقول : البصيرة لاترى إلا اللطيف ، والبصر لايرى إلا الكثيف . أو تقول البصيرة لاترى إلا القديم ، والبصر لايرى إلا الحادث . أو تقول البصيرة لاترى إلا المكون ، والبصر لايرى إلا الكون ، فإذا أراد الله فتح بصيرة العبد أشغله فى الظاهر بخدمته ، وفى الباطن بمحبته ، فكلما عظمت المحبة فى الباطن والخدمة فى الظاهر قوى نور البصيرة حتى يستولى على البصر ، فيغيب نور البصر فى نور البصيرة ، فلا يرى إلا ماتراه البصيرة من المعانى اللطيفة والأنوار القديمة ، وهذا معنى قول شيخ شيوخنا المجذوب :

غَـيَّبْـتُ نَـظَرِى فِى نَـظَرْ وَأُفْنِيـتُ عَنْ كُـلِّ فَـانِى
حَقَّقْتُ مَـا وَجَـدْتُ غِـيَرْ وَأَمْسَيْتُ فِى الْحَـالِ هَـانِى

وإذا أراد الله خذلان عبده أشغله فى الظاهر بخدمة الأكوان ، وفى الباطن بمحبتها ، فلا يزال كذلك حتى يطمس نور بصيرته ، فيستولى نور بصره على نور بصيرته ، فلا يرى إلا الحس ، ولايخدم إلا الحس ، فيجتهد فى طلب ماهو مضمون من الرزق المقسوم ، ويقصر فيما هو مطلوب منه من الفرض المحتوم ، ولو كان بدّل الاجتهاد استغراقًا ، وبدَّل التقصير تركًا لكان بدّل الطمس عمى وهو الكفر والعياذ بالله ، لأن الدنيا كنهر طالوت ولاينجو منها إلا من لم يشرب أو اغترف غرفة بيده ، لا من شرب على قدر عطشه فافهم . قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : البصيرة كالبصر أدنى شىء يقع فيه يمنع النظر وإن لم ينته إلى العمى . فالخطرة من الشىء تشوش النظر ، وتكدر الفكر . والإزادة له تذهب بالخير رأسًا ، والعمل به يذهب عن صاحبه سهمًا من الإسلام فيما هو فيه ويأتى بضده ، فإذا استمر على الشر تفلت منه الإسلام كله ، فإذا انتهى إلى الوقيعة فى الأمة وموالاة الظلمة حبًّا فى الجاه والمنزلة ، وحبًّا للدنيا على الآخرة فقد تفلت منه الإسلام كله . ولايغرنك ماتوسم به ظاهرًا فإنه لاروح له ، إذ الإسلام حب الله وحب الصالحين من عباده انتهى .

الرضا باختيار الله

ولما كان الاجتهاد فى المضمون كله مذموم كان بالفعل كما تقدم أو بالقول ، وهو الاستعجال فى تحصيله قبل إبّانه بالدعاء أو بغيره ، أشار إلى ذلك بقوله :

[لايكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح فى الدعاء موجبًا ليأسك ، فهو ضمن لك الإجابة فيما يختار لك لافيما تختار لنفسك ، وفى الوقت الذى يريد لافى الوقت الذى تريد] .

قلت : الإلحاح فى الشىء هو تكرره من وجه واحد ، والدعاء : طلب مصْحوب بأدب فى بساط العبودية لجناب الربوبية ، والموجب للشىء ما كان أصلا فى وجوده ، واليأس قطع المطامع .

اعلم أن من أسمائه تعالى القيوم ، وهو مبالغة فى القيام ، فقد قام تعالى بأمر خلقه من عرشه إلى فرشه ، وعيّن لكل مَظهَر وقتًا محدودًا وأجلا معلومًا ، ولكل واحد شكلا معلومًا ورزقًا مقسومًا :

(فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لايَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)[1] .

فإذا تعلق قلبك بحاجة من حوائج الدنيا والآخرة ، فارجع إلى وعد الله ، واقنع بعلم الله ، ولاتحرص ، ففى الحرص تعب ومذلة .

قال شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه : الناس تقضى حوائجهم

---

(١) الأعراف : ٣٤ .

بالحرص فيها والجرى عليها ، ونحن نقضى حوائجنا بالزهد فيها والاشتغال بالله عنها اهـ .

وإن كان ولابد من الدعاء فليكن دعاؤك عبودية لاطلبًا للحظ ، فإن تركتَ الحظوظ صُبَّت عليك الحظوظ ، وإن غلب عليك وارد الطلب وطلبت شيئًا ثم تأخر عنك وقت العطاء فيه ، فلا تتهم الله فى وعده حيث قال :

(ٱدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)[1] .

ولا تيأس من نواله ورفده ، فإن الله قد ضمن لك الإجابة فيما يريد من خير الدنيا وخير الآخرة ، وقد يمنعك لطفًا بك لكون ذلك المطلب لايليق بك كما قال الشيخ أبو الحسن : اللهم إنا قد عجزنا عن دفع الضر عن أنفسنا من حيث نعلم بما نعلم ، فكيف لانعجز عن ذلك من حيث لانعلم بما لانعلم ؟ وقد قال بعض المفسرين فى قوله تعالى :

(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الخِيَرَةُ) .

ما موصولة : أى ويختار الأمر الذى لهم فيه خيرتهم ، وقد يكون أجابك وعين لذلك وقتًا هو أصلح لك وأنفع ، فيعطيك ذلك فى الوقت الذى يريد لافى الوقت الذى تريد ، وقد يؤخر لك ذلك لدار الكرامة والبقاء وهو خير لك وأبقى . وفى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَا مِنْ دَاعٍ إِلاّ وَهُوَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلاثٍ : إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ طَلِبَتُهُ ، وَإِمَّا أَنَ يُدَّخَرَ لَهُ ثَوَابُهَا ، وإِمَّا أَنْ يُصْرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوء مِثْلُهَا » الحديث .

وقال الشيخ عبد العزيز المهدوىّ رضى الله عنه : من لم يكن فى دعائه تاركا لاختياره راضيًا باختيار الحق تعالى له ، فهو مستدرج ممن قيل له « اقضوا حاجته فإنى أكره أن أسمع صوته » فإن كان مع اختيار الحق تعالى لا مع اختياره لنفسه كان مجابًا وإن لم يعط ، والأعمال بخواتمها اهـ .

---

(١) سورة غافر : ٦٠ .

وعد الله حق

ثم حقق لك ماتقدم من إنجاز الوعد ونفوذ الموعود ولكن على الوجه الذى يريد وفى الوقت الذى يريد ، وأمرك فى ذلك بالصدق والتصديق ، ونهاك عن الشك والترديد ، ليكمل بذلك فتح بصيرتك ، وتبتهج أنوار سريرتك فقال :

[لا يشككنك فى الوعد عدم وقوع الموعود وإن تعين زمنه ، لئلا يكون ذلك قدحًا فى بصيرتك ، وإخمادًا لنور سريرتك] .

التشكيك فى الشىء : هو التردد فى الوقوع وعدمه . والوعد : الإخبار بوقوع الشىء فى محله ، والموعود : المخبر به ، والقدح فى الشىء : التنقيص له والغض من مرتبته ، والبصيرة : القوة المهيئة لإدراك المعانى ، والسريرة : القوة المستعدة لتمكن العلم والمعرفة .

واعلم أن النفس والعقل والروح والسر شىء واحد ، لكن تختلف التسامى باختلاف المدارك ، فما كان من مدارك الشهوات فمدركه النفس ، وما كان من مدارك الأحكام الشرعية فمدركه العقل ، وما كان من مدارك التجليات والواردات فمدركه الروح ، وماكان من مدارك التحقيقات والتمكنات فمدركه السر والمحل واحد ، وإخماد الشىء خفاؤه بعد ظهوره .

قلت : إذا وعدك الحق تعالى بشىء على لسان الوحى أو الإلهام من نبى أو ولى أو تجلٍّ قوى فلاتشك أيها المريد فى ذلك الوعد إن كنت صدّيقًا ، فإن لم يتعين زمنه فالأمر واسع ، وقد يطول الزمان وقد يقصر ، فلاتشك فى وقوعه وإن طال زمنه ، وقد كان بين دعاء سيدنا موسى وهارون على فرعون بقوله :

(رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ)[1] الآية .

أربعون سنة على ماقيل ، وإن تعين زمنه ولم يقع ذلك عند حلوله فلا تشك فى صدق ذلك الوعد ، فقد يكون ذلك مترتبًا على أسباب وشروط غيبية أخفاها الله تعالى عن ذلك النبى أو الولى لتظهر قهربة عزته وحكمته . وتأمل قضية سيدنا

---

(١) يونس : ٨٨ .

يونسٍ عليه السلام حيث أخبر قومه بالعذاب لما أخبر به وفر عنهم ، وكان ذلك متوقفًا على عدم إسلامهم ، فلما أسلموا تأخر عنهم العذاب . وكذلك قضية سيدنا نوح عليه السلام حيث قال :

(إِنَّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ)[1] .

فوقف مع ظاهر العموم فقال له تعالى :

(إِنَّهُ لَيْس مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ)[2] .

ونحن إنما وعدناك بنجاة الصالح من أهلك ، وإن فهمت العموم فعلمنا متسع ولهذا السر الخفى كان الرسل عليهم الصلاة والسلام وأكابر الصديقين لايقفون مع ظاهر الوعد ، فلا يزول اضطرارهم ، ولايكون مع غير الله قرارهم ، بل ينظرون لسعة علمه تعالى ونفوذ قهره ، ومنه قول سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام :

(وَلا أَخَافُ مَاتُشْرِكُونَ بِهِ إِلاّ أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلمًا)[3] .

وقول سيدنا شعيب عليه السلام : (ومَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيَها) أى فى ملة الكفر (إِلاَّ أَنْ يَشَاء اللهُ ربُّنَا وسِعَ رَبُّنا كلَّ شَىْء)[4] .

وقضية نبينا صلى الله عليه وسلم يوم بدر حيث دعا حتى سقط رداؤه وقال : « اللَّهُمَّ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ ، اللهُمَّ إِنْ تَهْلِكْ هٰذِهِ الْعِصَابَةُ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ الْيَوْمِ » .

فقال له الصديق : حسبك يارسول الله فإن الله منجز لك ما وعدك ، فنظر المصطفى أوسع لعدم وقوفه مع ظاهر الوعد ، ووقف الصديق مع الظاهر ، فكل على صواب والنبى صلى الله عليه وسلم أوسع نظرًا وأكمل علمًا :

---

(١) هود : ٤٥ .
(٢) هود : ٤٦ .
(٣) الأنعام : ٨٠ .
(٤) الأعراف : ٨٩ .

وأما قضية الحديبية : فلم يتعين فيها زمن الوعد لقوله تعالى : (فَعَلِمَ مَالَمْ تَعْلَمُوا)[1] .

وقد قال عليه الصلاة والسلام لعمر حين قال له : ألم تخبرنا أنا ندخل مكة : فقال له:

« أَقُلْتُ لَكَ هٰذَا الْعَام ؟ فَقَالَ لَا ، فَقَالَ إِنَّكَ دَاخِلهَا ومُطَّوَّفٌ بِهَا » .

فشد يدك ياأخى على تصديق ماوعدك الله به وحسن ظنك به وبأوليائه ولاسيما شيخك . فإياك أن تضمر التكذيب أو الشك فيكون ذلك قدحًا فى بصيرتك ، وقد يكون سببًا فى طمسها ، ويكون أيضًا إخمادًا أى إخفاء وإطفاء لنور سريرتك ، فترجع من حيث جئت ، وتهدم كل مابنيت . فانظر أحسن التأويلات والتمس أحسن المخارِج . وقد تقدم قول شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : نحن إذا قلنا شيئا فخرج فرحنا مرة ، وإذا لم يخرج فرحنا عشر مرات ، وماذاك إلا لوسع نظره وتمكنه فى معرفة ربه ، وأيضا قد يطلع أولياءه على نزول القضاء ولايطلعهم على نزول اللطف ، فينزل ذلك القضاء مصحوبًا باللطف ، فينزل خفيفًا سهلا حتى يظن أنه لم ينزل . وقد شهدنا هذا وماقبله من أنفسنا ومن أشياخنا رضى الله عنهم ، فلم ينقص صِدْقنا ولم يُخمِد نور سريرتنا ، فلله الحمد ربنا .

تنبيه : كان شيخنا الفقيه العلامة سيدى التاوُدى بن سَوْدة يستشكل هذه الحكمة ويقول : كيف يتصور تعيين الزمان ؟ إن كان بالوحى فقد انقطع ، وإن كان بالإلهام فلا يلزم من الشك فيه القدح فى البصيرة ، إذ لايجب الإيمان به . قلنا كلامنا مع المريدين الصديقين السائرين أو الواصلين ، وهم مطالبون بالتصديق للأشياخ فى كل مانطقوا به إذ هم ورثة الأنبياء فهم على قدمهم ، فللأنبياء وحى الأحكام ، وللأولياء وحى الإلهام ، لأن القلوب إذا صفت من الأكدار والأغيار وملئت بالأنوار والأسرار لايتجلى فيها إلا الحق ، فإذا نطقوا

---

(١) الفتح : ٢٧ .

بشيء من وعد أو وعيد يجب على المريد تصديقه ، فإذا دخله تشكيك أو تردد فيما وعده الله على لسان نبيه أو شيخه قدح ذلك في نورِ بصيرته وأخمد سريرته ، فإذا لم يعين زمنُه انتظر وقوعه وإن طال ، وإن عين زمنه ولم يقع تأول فيه ماتقدم فى حق الرسل من توقفه على أسباب وشروط خفية ، وبهذا فرقوا بين الصديق والصادق ، لأن الصديق لايتردد ولايتعجب ، والصادق يتردد ثم يجزم . وإن رأى خرق عادة تعجب واستغرب ، والله تعالى أعلم .

تجلِّى الله للعبد

ولما كانت التعرفات القهرية ظاهرها جلال وباطنها جمال لمايعقبها من أوصاف الكمال ، وربما يشك المريد فيما وعد الحق عليها من الخيرات ومارتب عليها من الفتوحات ، نبه الشيخ على ذلك فقال :

[إذا فتح لك وجهة من التعرف فلا تبال معها إن قل عملك ، فإنه مافتحها لك إلا وهو يريد أن يتعرف إليك ، ألم تعلم أن التعرف هو مورده عليك والأعمال أنت مهديها إليه ؟ وأينّ ماتهديه إليه مما هو مورده عليك] .

فتح هنا : بمعنى هيأ ويسّر ، والغالب استعماله فى الخير ، فأشْعَر الإتيان به هنا أن جهة التعريف من الأمور الجميلة ، والوجهة : هى الجهة ، والمراد هنا الباب والمدخل . والتعريف : طلب المعرفة ، تقول تعرف لى فلان : إذا طلب منى معرفته ، والمعرفة : تمكن حقيقة العلم بالمعروف من القلب حتى لايمكن الانفكاك عنه بحال ، والمبالاة التهمم بفوات الشيء .

قلت : إذا تجلى لك الحق تعالى باسمه الجليل أو باسمه القهار وفتح لك منها بابًا ووجهة لتعرفه منها ، فاعلم أن الله تعالى قد اعتنى بك وأراد أن يجتبيك لقربه ويصطفيك لحضرته ، فالتزم الأدب معه بالرضا والتسليم ، وقابله بالفرح والسرور ؛ ولاتبال بما يفوتك بها معها من الأعمال البدنية ، فإنما هى وسيلة للأعمال القلبية ، فإنه مافتح هذا الباب إلا وهو يريد أن يرفع بينك وبينه الحجاب . ألم تعلم أن التعرفات الجلالية هو الذى أوردها عليك لتكون عليه

واردًا ، والأعمال البدنية أنت مهديها إليه لتكون إليه بها واصلا ، وفرق كبير بين ماتهديه أنت من الأعمال المدخولة والأحوال المعلولة ، وبين مايورده عليك الحق تعالى من تحف المعارف الربانية والعلوم اللدنية ، فطب نفسًا أيها المريد بما ينزل عليك من هذه التعرفات الجلالية والنوازل القهرية ، ومثل ذلك كالأمراض والأوجاع والشدائد والأهوال ، وكل مايثقل على النفس ويؤلمها كالفقر والذل وأذية الخلق وغير ذلك مماتكرهه النفوس ، فكل ماينزل بك من هذه الأمور فهى نعم كبيرة ومواهب غزيرة تدل على قوة صدقك ، إذ بقدر مايعظم الصدق يعظم التعرف : « أَشَدُّكُمْ بَلَاءً الْأَنْبِياء ، فَالْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ » .

والصدق متبوع ، وإذا أراد الله أن يطوى مسافة البعد بينه وبين عبده سلط عليه البلاء ، حتى إذا تخلص وتشحر صلح للحضرة كما تصفى الفضة والذهب بالنار لتصلح لخزانة الملك ، ومازال الشيوخ والعارفون يفرحون بهذه النوازل ويستعدون لها فى كسب المواهب . وكان شيخ شيوخنا سيدى على العمرانى رضى الله عنه يسميها ليلة القدر ويقول : كل الحيزة هى ليلة القدر التى هى خير من ألف شهر ، وذلك لأجل مايجتنيه العبد منها من أعمال القلوب ، التى الذرة منها أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح ، وقد قلت فى ذلك بيتين وهما :

إِذَا طَرَقَتْ بَابِى مِنَ الدَّهْرِ فَاقَةٌ فَتَحْتُ لَهَا بَابَ الْمَسَرَّةِ والْبِشْرِ
وَقُلْتُ لَهَا أَهْلًا وَسَهْلًا وَمَرْحَبًا فَوقْتُكِ عِنْدِى أَحْظَى مِنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ

واعلم أن هذه التعرفات الجلالية هى اختبار من الحق ومعيار للناس ، وبها تعرف الفضة والذهب من النحاس ، فكثير من المدعين يظهرون على ألسنتهم المعرفة واليقين ، فإذا وردت عليهم عواصف رياح الأقدار ألقتهم فى مهاوى القنط والإنكار . من ادعى ماليس فيه فضحته شواهد الامتحان .

وكان شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : العجب كل العجب ممن يطلب معرفة الله ويحرص عليها ، فإذا تعرف له الحق تعالى هرب منه وأنكره .

وقال شيخنا اليزيدى رضى الله عنه : هذه التعرفات الجلالية على ثلاثة

أقسام : قسم عقوبة وطرد ، وقسم تأديب وتنبيه ، وقسم زيادة وترق ، أما الذى هو عقوبة وطرد ، فهو الذى يسىء الأدب فيعاقبه الحق تعالى ويجهل فيها فيسخط ويقنط وينكر ، فيزداد من الله طردًا وبعدًا . وأما القسم الذى هو تأديب ، فهو يسىء الأدب فيؤدبه الحق تعالى فيعرفه فيها وينتبه لسوء أدبه وينهض من غفلته ، فهى فى حقه نعمة فى مظهر النقمة ، وأما الذى هى فى حقه زيادة وترقٍ ، فهو الذى تنزل به هذه التعرفات من غير سبب فيعرف فيها ويتأدب معها ويترقى بها إلى مقام الرسوخ والتمكين اهـ بالمعنى .

قلت : ولذلك قال بعضهم : بقدر الامتحان يكون الامتكان . وقال أيضًا : اختبار الباقى يقطع التباقى .

فائدة : إذا أردت أن يسهل عليك الجلال فقابله بضده وهو الجمال فإنه ينقلب جمالا فى ساعته . وكيفية ذلك : أنه إذا تجلى باسمه القابض فى الظاهر فقابله أنت بالبسط فى الباطن فإنه ينقلب بسطًا . وإذا تجلى لك باسمه القوى فقابله أنت بالضعف ، أو تجلى باسمه العزيز فقابله بالذل فى الباطن ، وهكذا يقابل الشىء بضده قيامًا بالقدرة والحكمة . وكان شيخ شيخنا مولاى العربى رضى الله عنه يقول : ماهى إلا حقيقة واحدة إن شربتها عسلا وجدتها عسلا ، وإن شربتها لبنًا وجدتها لبنًا ، وإن شربتها حنظلا وجدتها حنظلا ، فاشرب يا أخى المليح ولاتشرب القبيح اهـ .

ومعنى كلامه رضى الله عنه هو كما تقدم : كما تقابله يقابلك ، والله تعالى أعلم .

تنوع الأعمال

ولما تكلم على الأعمال وثمراتها وهو الأدب ، ومرجعه إلى السكون تحت مجارى الأقدار من غير تدبير ولا اختيار ، ولاتعجيل لما تأخر ولاتأخر لما تعجل ، بل يكون محط نظره إلى مايبرز من عنصر القدرة فيتلقاه بالمعرفة ، تكلم على تنويعها وتهذيبها بتهذيب عاملها فقال :

[تنوعت أجناس الأعمال بتنوع واردات الأحوال] .

تنويع الشيء : تكثيره . والأعمال هنا عبارة عن حركة الجسم ، والواردات والأحوال عبارة عن حركة القلب . فالخاطر والوارد والحال محلها واحد وهو القلب ، لكن مادام القلب تخطر فيه الخواطر الظلمانية والنورانية سمى مايخطر فيه خاطرًا ، وإن انقطعت عنه الخواطر الظلمانية سمى مايخطر فيه واردًا أو حالا ، فإضافة أحدهما إلى الآخر إضافة بيانية وكلاهما يتحولان ، فإن دام ذلك سمى مقامًا .

قلت : قد تنوعت أجناس الأعمال الظاهرة بتنوع الأحوال الباطنة . أو تقول : أعمال الجوارح تابعة لأحوال القلوب ، فإن ورد على القلب قبض ظهر على الجوارح أثره من السكون ، وإن ورد عليه بسط ظهر على الجوارح أثره من الخفة والحركة ، وإن ورد على القلب زهد وورع ظهر على الجوارح أثره وهو ترك وإحجام أى تأخر ، وإن ورد على القلب رغبة وحرص ظهر على الجوارح أثره ، وهو كد وتعب ، وإن ورد على القلب محبة وشوق ظهر على الجوارح أثره وهو شطح ورقص ، وإن ورد على القلب معرفة وشهود ظهر على الجوارح أثره وهو راحة وركود ، إلى غير ذلك من الأحوال ومايتشأ عنها من الأعمال .

وقد تختلف هذه الأحوال على قلب واحد فيتلون الظاهر فى أعماله . وقد يغلب على قلب واحد حال واحد فيظهر عليه أثر واحد ، فقد يغلب على الشخص القبض فيكون مقبوضًا فى الغالب ، وقد يغلب عليه البسط كذلك إلى غير ذلك من الأحوال ، والله تعالى أعلم .

وفى الحديث : « إِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، أَلَا وَهِىَ الْقَلْبُ » .

قلت : ولأجل هذا المعنى اختلفت أحوال الصوفية ، فمنهم عباد ، ومنهم زهاد ومنهم الورعون ، والمريدون ، والعارفون .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه فى قواعده :

قاعدة : النسك الأخذ بكل مسلك من الفضائل من غير مراعاة لغير ذلك ، فإن رام التحقيق فى ذلك : أى النسك فهو العابد ، وإن مال للأخذ بالأحوال

فهو الورع ، وإن آثر جانب الترك طالبًا للسلامة فهو الزاهد ، وإن أرسل نفسه فى مراد الحق فهو العارف ، وإن أخذ بالتخلق والتعلق فهو المريد . اهـ المراد منه .

وقال فى قاعدة أخرى : لايلزم من اختلاف المسالك اختلاف المقاصد ، بل يكون متحدًا مع اختلاف مسالكه كالعبادة والزهادة والمعرفة مسالك لقرب الحق على سبيل الكرامة وكلها متداخلة ، فلابد للعارف من عبادة وإلا فلا عبرة بمعرفته إذ لم يعبد معروفه ، ولابد له من زهادة وإلا فلا حقيقة عنده ، إذ لم يعرض عما سواه ، ولابد للعابد منهما إذ لاعبادة إلا بمعرفة : أى فى الجملة ، ولا فراغ للعبادة إلا بزهد ، والزاهد كذلك إذ لازهد إلا بمعرفة أى فى الجملة ، ولازهد إلا بعبادة وإلا عاد بطالة . نعم من غلب عليه العمل فعابد ، أو الترك فزاهد ، أو النظر لتصريف الحق فعارف . والكل صوفية ، والله أعلم اهـ .

الإخلاص

ولما كان الإخلاص شرطًا فى كل عمل ذكره بأثره فقال :

[**الأعمال صور قائمة ، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها**] .

الأعمال هنا : عبارة عن الحركة الجسمانية أو القلبية ، والصور : جمع صورة ، وهو مايتشخص فى الذهن من الكيفيات ، والروح : السر المودع فى الحيوانات ، وهو هنا عبارة عمايقع به الكمال المعتبر فى الأعمال ، والإخلاص : إفراد القلب لعبادة الرب ، وسره لبه ، وهو الصدق المعبر عنه بالتبرى من الحول والقوة ، إذ لايتم إلا به وإن صح دونه ، إذ الإخلاص نفى الرياء والشرك الخفى ، وسره : نفى العجب وملاحظة النفس ، والرياء قادح فى صحة العمل ، والعجب قادح فى كماله فقط .

قلت : الأعمال كلها أشباح وأجساد ، وأرواحها وجود الإخلاص فيها ، فكما لاقيام للأشباح إلا بالأوراح وإلا كانت ميتة ساقطة ، كذلك لاقيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها وإلا كانت صورًا قائمة وأشباحًا خاوية لاعبرة بها قال تعالى :

(وَمَا أمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا الله مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء)[1] وقال تعالى : (فَاعْبُدِ الله مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)[2] .

وقال صلى الله عليه وسلم حاكيًا عن الله تعالى :

« يقُولُ : أنَا أغْنَى الشُّرَكاء . مَنْ أشْرَكَ مَعِى غَيْرِى تَرَكْتُهُ وَشَرِيكَهُ » وقال صلى الله عليه وسلم : « أخْوفُ مَا أخَافُ عَلَى أمَّتِي الشِّرْكُ الخَفِىُّ وَهُوَ الرِّيَاء »

وفى رواية : « اتَّقُوا هٰذَا الشِّرْك الْخَفِى فَإنَّهُ يَدِبُّ دَبِيبَ النَّمْلِ ، قيل : وَمَا الشِّرْكُ الخَفِىُّ ؟ قَالَ الرِّيَاء » اهـ بالمعنى لطول العهد به .

وفى حديث مسلسل إلى النبى صلى الله عليه وسلم :

« أنَّهُ سُئِلَ عَنِ الإخْلاصِ ، فَقَالَ : حَتَّى أسْأل جِبْرِيلَ ، فَلَمَّا سَألَهُ قَالَ : حَتَّى أسْألَ رَبَّ الْعِزَّةِ ، فَلَمَّا سَألَهُ قَالَ لَهُ : هُوَ سِرٌّ مِنْ أسْرَارِى أودِعُهُ قَلْبَ مَنْ أحْبَبتُ مِنْ عِبَادِى ، لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكْتُبَهُ ، وَلَا شَيْطَانٌ فَيُفْسِدَهُ » : قال بعضهم : هو مقام الإحسان « أنْ تَعْبُدَ الله كَأنكَ تَرَاهُ » .

والإخلاص على ثلاث درجات : درجة العوام ، والخواص ، وخواص الخواص . فإخلاص العوام : هو إخراج الخلق من معاملة الحق ، مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية ، كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور . وإخلاص الخواص : طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية . وإخلاص خواص الخواص إخراج الحظوظ بالكلية ، فعبادتهم تحقيق العبودية ، والقيام بوظائف الربوبية ، أو محبة وشوقًا إلى رؤيته كما قال ابن الفارض :

لَيْسَ سُؤلِي مِنَ الْجِنَانِ نَعِيمًا غَيْرَ أنِّى أحِبُّهَا لِأرَاكَا

---

(١) البينه : ٥ . (٢) الزمر : ٢ .

وقال آخرُ :

كُلُّهُمْ يَعْبُدُونَ مِنْ خَوفِ نَارٍ ... وَيَرَوْنَ النَّجَاةَ حَظًّا جَزِيلَا
أَوْ بِأَنْ يَسْكُنُوا الجِنَانَ فَيَضْحَوا ... فِى رِيَاضٍ وَيَشْرَبُوا السَّلْسَبِيلَا
لَيْسَ لِى فِى الجِنَانِ وَالنَّارِ رأىٌ ... أَنَا لَا أَبْتَغِى بِحِبِّى بَدِيلَا

قال الشيخ أبو طالب رضى الله عنه : الإخلاص عند المخلصين إخراج الخلق من معاملة الحق ، وأول الخلق النفس ، والإخلاص عند المحبين : ألا يعملوا عملا لأجل النفس وإلا دخل عليها مطالعة العوض أو الميل إلى حظ النفس . والإخلاص عند الموحدين : خروج الخلق من النظر إليهم فى الأفعال ، وعدم السكون والاستراحة إليهم فى الأحوال .

وقال بعض المشايخ : صحح عملك بالإخلاص ، وصحح إخلاصك بالتبرى من الحول والقوة . اهـ كلامه .

وقال بعض العارفين : لايتحقق الإخلاص حتى يسقط من عين الناس ويُسقِط الناس من عينه ، ولذلك قال آخر : كلما سقطت من عين الخلق عظمت فى عين الحق وكلما عظمت فى عين الخلق سقطت من عين الحق ، يعنى مع ملاحظتهم ومراقبتهم .

وسمعت شيخنا يقول : مادام العبد يراقب الناس ويهابهم لايتحقق إخلاصه أبدًا . وقال أيضًا : لاتجتمع مراقبة الحق مع مراقبة الخلق أبدًا ، إذ محال أن تشهده وتشهد معه سواه اهـ .

والحاصل : لايمكن الخروج من النفس والتخلص من دقائق الرياء من غير شيخ أبدًا ، والله تعالى أعلم .

الخمول

ولما كان الخمول من مضامن الإخلاص ، بل لايتحقق فى الغالب إلا به إذ لاحظ فيه للنفس ذكره بعده فقال :

[ادفن وجودك فى أرض الخمول ، فمانبت مما لم يدفن لايتم نتاجه] .

الدفن : هو التغطية والستر ، والخمول : سقوط المنزلة عند الناس ، ونتاج الشجرة : ثمرتها ، استعير هنا للحكم والمواهب والعلوم التى يجتنيها العبد من المعرفة بالله ، وذلك عند موت نفسه وحياة روحه .

قلت : استر نفسك أيها المريد وادفنها فى أرض الخمول حتى تَستأنِسَ به وتستحليَه ،ويكون عندها أحلى من العسل ، ويصير الظهور عندها أمرّ من الحنظل ، فإذا دفنتها فى أرض الخمول وامتدت عروقها فيه ، فحينئذ تجنى ثمرتها ويتم لك نتاجها ، وهو سر الإخلاص والتحقق بمقام خواص الخواص . وأما إذا لم تدفنها فى أرض الخمول وتركتها على ظهر الشهرة تجول ، ماتت شجرتها أو أسقطت ثمرتها ، فإذا جنى العارفون ماغرسوه من جنات معارفهم من العلوم ، ومادفنوه من كنوز الحكم ومخازن الفهوم بقيت أنت فقيرًا سائلا أوسارقًا صائلا .

قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه : أين تنبت الحبة ؟ قالوا فى الأرض ، قال كذلك الحكمة لاتنبت إلا فى القلب كالأرض اهـ .

وقال بعض العارفين : كلما دفنت نفسك أرضًا أرضًا سماقلبك سماء سماء .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِى طِمْرَيْنِ تَنْبُو عَنْهُ أَعْيُنُ النَّاسِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ فى قَسَمِهِ » .

« وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ جَالِسًا مَعَ الْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ كبير بَنى تميمٍ ، فَمَرَّ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاء الْمُسْلِمِينَ فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاة والسَّلامُ لِلْأَقْرَعِ بْنِ حَابِسٍ مَاتَقُولُ فى هٰذا ؟ فقالَ هذا يارَسُولَ اللهِ مِنْ فُقَرَاء الْمُسْلِمِينَ ، حَقِيق إنْ خَطَبَ ألا يُزَوَّجُ ، وَإن اسْتأْذَنَ ألّا يُؤْذَنَ لهُ ، وإنْ قال ألا يُسمَعَ لَهُ ؛ ثُمَّ مَرَّ بِهِمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُتْرَفِينَ ، فَقَالَ لَهُ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ : وَمَا تَقُولُ فى هٰذا ؟ فَقَالَ : هٰذَا حَقِيقٌ إنْ خَطَبَ أَنْ يُزَوَّجَ ، وَإنِ اسْتَأْذَنَ أن يُؤذَنَ لَهُ، وإنْ قَالَ أنْ يُسْمَعَ لَهُ ،

فقَالَ صَلى الله عليهِ وسلَم : هٰذَا ، يَعْنِي الفَقِيرَ ، خَيْرٌ مِنْ مِلْء الأَرْضِ مِنْ هٰذَا » .

وفى مدح الخمول أحاديث كثيرة ، وفضائل مشهورة ، ولو لم يكن فيه إلا الراحة وفراغ القلب لكان كافيًا ، وأنشد بعضهم وهو الحضرمى :

عِشْ خَامِلَ الذِّكْرِ بَيْنَ النَّاسِ وَارْضَ بِهِ
فَذَاكَ أَسْلَمُ لِلدُّنْيَا وَلِلدِّينِ
مَنْ عَاشَرَ النَاسَ لَمْ تَسْلَمْ دِيَانَتُهُ
وَلَمْ يَزَلْ بَيْنَ تَحْرِيكٍ وَتَسْكِينِ

وقال بعض الحكماء : الخمول نعمة والنفس تأباه ، والظهور نقمة والنفس تهواه ، وقال آخر : طريقتنا هذه لاتصلح إلا بقوم كنست بأرواحهم المزابل .

قلت : ويجب على من ابتلى بالجاه والرياسة أن يستعمل من الخراب مايسقط به جاهه وإن كان مكروهًا دون الحرام المتفق عليه بقصد الدواء ، كالسؤال فى الحوانيت أو الديار ، والأكل فى السوق وحيث يراه الناس ، وكالرقاد فيه ، وكالسقى بالقربة ، وحمل الزبل على الرأس بوقاية ، وكالمشى بالحفا ، وإظهار الحرص والبخل والشح ، وكلبس المرقعة ، وتعليق السبحة الكبيرة ، وكل مايثقل على النفس من المباح أو المكروه دون الحرام .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وكما لا يصح دفن الزرع فى أرض رديئة لايجوز الخمول بحالة غير مرضية . وقياس ذلك بالغصة لايصح ، لأن فوت الحياة الحسية مانع من كل خير واجبًا ومندوبًا ، وتقويتها مع إمكان إبقائها محرم إجماعًا ، لقوله تعالى : (وَلَاتُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ)[1] .

بخلاف الخمول لايفوت به شىء من ذلك ، إنما يفوت به الكمال ، وهو نفى الجاه والمنزلة ، وأصله الإباحة اهـ .

وأجاب بعضهم بأنه إذا جاز لفوت الحياة الفانية ، فأولى أن يجوز لفوت

---

(١) البقرة : ١٩٥ .

الحياة الدائمة وهى المعرفة فتأمله .

وقصة لص الحمام تشهد له ، والله تعالى أعلم .

ولقد سمعت شيخنا رضى الله عنه يقول : الفقير الصديق يقتل نفسه بأدنى شيء من المباح ، والفقير الكذاب يقع فى المحرم ولايقتلها ، وكان كثيرًا ماينهى عن الأحوال الظلمانية ويقول : عندنا من المباح مايغنينا عن المحرم والمكروه .

وأما السؤال فإنما هو مكروه أو حرام ، لقصد قوت الأشباح مع الكفاية . وأما لقصد قوت الأرواح فليس بحرام . وقد ذكر القسطلانى فى شرح البخارى عن ابن العربى الفقير ، أنه واجب على الفقير فى بدايته فانظره . وقد ذكره فى المباحث الأصلية مستوفى فانظره ، وسيأتى الكلام عليه إن شاء الله عند قوله : لاتمدن يدك إلى الأخذ من الخلائق إلخ .

فإن قلت : هذا الخراب الذى ذكرت فيه شهرة أيضًا ، إذ الخمول هو الخفاء عن أعين الناس ، وهذا فيه ظهور كبير .

قلت : الخمول هو إسقاط المنزلة عند الناس وكتمان سر الولاية ، وكل مايسقط المنزلة عندهم وينفى تهمة الولاية فهو خمول ، وإن كان فى الحس ظهورًا ، ولذلك كان شيخنا رضى الله عنه يقول : طريقنا منها الخمول فى الظهور ، والظهور فى الخمول .

وقال النجيبى فى « الإنالة » مانصه : ومن يقل من الصوفية إن المرقعة شهرة ، فجوابه أن سلمان الفارسى سافر فى زيارة أبى الدرداء من العراق إلى الشام راجلا وعليه كساء غليظ غير مضموم ، فقيل له أشهرت نفسك ؟ فقال الخير خير الآخرة ، وإنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد ، فإذا أعتقت لبست حلة لاتبلى حواشيها اهـ .

ومن ذلك قصة الغزالى رضى الله عنه : من حمله جلد الثور على ظهره حين ملاقاة شيخه الخراز وكنسه السوق واستعماله القربة ليسقى الناس ، كذا سمعتها من الشيخ مرارًا ، ولم أقف عليها عند أحد ممن عرف به . وانظر ماجرى له مع ابنِ العربى عند قوله : رب عُمْرٍ اتسعت آماده وقَلَّت أمداده . وكذلك قصة الشَّشتَرى رضى الله عنه مع شيخه ابن سبعين ، لأن الششترى كان وزيرًا وعالمًا وأبوه كان أميرًا ، فلما أراد الدخول فى طريق القوم قال له شيخه :

لاتنال منها شيئًا حتى تبيع متاعك وتلبس قُشَّابة وتأخذ بنديرًا وتدخل السوق ، ففعل جميع ذلك ، فقال له مانقول فى السوق ؟ فقال قل بدأت بذكر الحبيب ، فدخل السوق يضرب بنديره ويقول بدأت بذكر الحبيب ، فبقى ثلاثة أيام وخرقت له الحجب فجعل يغنى فى الأسواق بعلوم الأذواق . ومن كلامه رضى الله عنه :

شُوَيْخٌ مِنْ أَرْضِ مِكْنَاسِ فى وَسَطِ الأَسْوَاقِ يُغَنّى
آشْ عَلَىَّ مِنَ النَّاسِ وَآشْ عَلَى النَّاسِ مِنّى

ثم قال :

إِشْ حَدْ مِنْ حَدّ أَفْهَمُوا ذِى الإِشَارَه
وَانْظُرُوا كِبَرَ سِنّى وَالْعَصَا وَالْغِرَارَهْ

* * *

هٰكَذَا عِشْتُ بِفَاسِ وَكِذْهَانِ هَوْنِى
آشْ عَلَىَّ مِنَ النَّاس وَآشْ عَلَى النَّاسِ مِنى

* * *

وَمَا أَحْسَنَ كَلَامَهُ إِذَا يَخْطُرُ فى الأَسْواقِ
وَتَرَى أَهْلَ الحَوَانِتِ تَلْتَفِتُ لَوْ بِالأَعْنَاقِ

* * *

بِالْغِرَارَةِ فى عُنُقُو بِعُكَيْكِزٍ وَبِغْرَاف

* * *

شَيْخٌ يَبْنِى عَلَى سَاسِ كَإِنْشَاء اللهِ يَبْنِى
إِشْ عَلَىَّ مِنَ النَّاسِ وَآشْ عَلَى النَّاسِ مِنى

وكذا قصة الرجل الذى كان مع أبى يزيد البسطامى بقى معه ثلاثين سنة ، فكان لاينقطع عن مجلسه ولا يفارقه ، فقال له يومًا : يا أستاذى أنا منذ ثلاثين

سنة أصوم النهار وأقوم الليل ، وقد تركت الشهوات ، ولست أجد فى قلبى شيئًا من هذا الذى تذكر البتة ، وأنا أومن بكل ماتقول وأصدقه ؟ فقال له أبو يزيد رضى الله عنه : لو صليت ثلاثمائة سنة وأنت على ماأراك عليه لاتجد منه ذرة ، قال فلم ياأستاذ ؟ قال : لأنك محجوب بنفسك ، قال أفلهذا دواء حتى ينكشف هذا الحجاب ؟ قال نعم ، ولكنك لاتقبل ولاتعمل ، قال بل اقبل واعمل ماتقول ، قال له أبو يزيد : اذهب الساعة إلى الحجام واحلق رأسك ولحيتك وانزع هذا اللباس واتزر بعباءة ، وعلق فى عنقك مخلاة واملأها جوزًا واجمع حولك صبيانًا ، وقل بأعلى صوتك ياصبيان من يصفعنى صفعة أعطه جوزة وادخل سوقك الذى تُعظَّم فيه وأنت على هذه الحالة حتى ينظر إليك كل من عرفك ، فقال : يا أبا يزيد ، سبحان الله أيقال لمثلى هذا وتحسب أنى أفعله ، فقال له : قولك سبحان الله شرك ، فقال له وكيف ؟ فقال أبو يزيد لأنك عظمت نفسك فسبحتها قال : يا أبا يزيد لست أقدر على هذا ولا أفعله ، ولكن دلنى على غير هذا حتى أفعله ، فقال له أبويزيد : ابدأ بهذا قبل كل شىء حتى تسقط جاهك وتذل نفسك ، ثم بعد ذلك أعرفّك بما يصلح لك ، قال لا أطيق هذا ، قال : إنك قد قلت إنك تقبل وتعمل ، وأنا أعلم أن لامطمع لعبد فيما حجب عن العامة من أسرار الغيب حتى تموت نفسه ويخرق عوائد العامة ، فحينئذ تخرق له العوائد وتظهر له الفوائد اهـ .

وكذلك قصة أبى عمران البردعى مع شيخه أبى عبد الله التاودى بفاس ، من حلق رأسِه ولبسه جلابية وأخذ خبزة ينادى عليها من يخلصها ؟ ففعل جميع ذلك . وكذلك قصة شيخ شيوخنا سيدى عبد الرحمن المجذوب ، من أكْلِه التين عند أشجار الناس ، وغنائه بالأسواق ، وخرابه بالقصر مشهور حتى طوّف بها مرارًا . وكذلك قصة سيدى على العمرانى ، فخرابه بفاس مشهور كنار على علم . سكن السفليات حتى مات رضى الله عنه . وكذلك قصة شيخ شيخنا مولاى العربى ، من لبسه الغرارة وسقيه بالقربة وغير ذلك مما هو معلوم .

فهذه الحكايات تدل على أن الخمول ليس هو ما يفهمه العوام من لزوم البيوت والفرار إلى الجبال ، فذلك هو عين الظهور عند المحققين . وإنما الخمول هو كما قال الشيخ زروق رضى الله عنه : تحقق النفس بوصفها الأدنى وشعورها

به أبدًا ، ووصفها الأدنى هو الذل ، وكل مايثقل عليها فمرجعه للتحقيق بوصف التواضع ، وفائدته تحصيل العمل وكمال الحقيقة اهـ .

فإن قلت : فى فعل هذه الأحوال التعرض لكلام الناس وإيقاعهم فى الغيبة قلت : هذا مبنى على القصد والنية ، وكل من فعل شيئًا من ذلك فإنما قصده قتل نفسه وتحقيق إخلاصه ودواء قلبه ، وهم مسامِحُون لمن قال فيهم عاذِرون له . قال سيدى على فى كتابه : نحن نعذِر من عذرنا ونعذر من لم يعذرنا . وقال الشيخ زروق فى قواعده : قاعدة حكم الفقه عام فى العموم ، لأن مقصوده إقامة رسم الدين ورفع مناره وإظهار كلماته ، وحكم التصوف خاص فى الخصوص ، لأنه معاملة بين العبد وربه من غير زائد على ذلك فمن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفى ، ولم يصح إنكار الصوفى على الفقيه ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه فى الأحكام لافى الحقائق اهـ .

تنبيه : هذه الأدوية التى ذكرنا إنما هى فى حالة المرض ، وأما من تَحَقَّقَ شِفاؤه وكمل فناؤه فهو عبد الله سواء أظهره أو أخفاه . وفى هذا قال أبو العباس المرسى رضى الله عنه : من أحب الظهور فهو عبد الظهور ، ومن أحب الخفاء فهو عبد الخفاء ، وعبد الله سواء عليه أظهره أم أخفاه اهـ .

العزلة والفكرة

ولما كان التخلص من دقائق الرياء ومخادع النفوس ، لايكون فى الغالب إلا بالفكرة ، ولاتتم الفكرة إلا بالعزلة ، ذكرها فقال :

[ما نفع القلب شيءٌ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة] .

النفع : إيصال الفائدة ، والقلب : القوة المستعدة لقبول العلم ، والعزلة : انفراد القلب بالله ، وقد يراد بها الخلوة التى هى انفراد القالب عن الناس وهو المراد هنا ، إذ لا ينفرد القلب فى الغالب إلا إذا انفرد القالب ، وميدان بالفتح والكسر فى الميم : مجال الخيل استعير هنا للأفكار ، إذ ترددها فى مواقعها كتردد الخيل فى مجالها ، والفكرة : سير القلب إلى حضرة الرب ، وهى على قسمين : فكرة تصديق وإيمان ، وفكرة شهود وعيان على ما يأتى .

قلت : لا شيء أنفع للقلب من عزلة مصحوبة بفكرة ، لأن العزلة كالحمية والفكرة كالدواء فلا ينفع الدواء من غير حمية ، ولا فائدة فى الحمية من غير دواء . فلا خير فى عزلة لا فكرة فيها ، ولا نهوض لفكرة لا عزلة معها ، إذ المقصود من العزلة هو تفرغ القلب ، والمقصود من التفرغ هو جولان القلب واشتغال الفكرة ، والمقصود من اشتغال الفكرة تحصيل العلم وتمكنه من القلب ، وتمكن العلم بالله من القلب هو دواؤه . وغاية صحته وهو الذى سماه الله القلب السليم ، قال الله تعالى فى شأن القيامة :

(يَوْمَ لَايَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ)[1] .

أى صحيح . وقد قالوا : إن القلب كالمعدة إذا قويت عليها الأخلاط مرضت ولا ينفعها إلا الحمية ، وهى قلة موادها ومنعها من كثرة الأخلاط .

وفى الحديث : « المَعِدَةُ بَيْتُ الدَّاء ، وَالحِمْيَةُ رَأْسُ الدَّوَاءِ » .

وكذلك القلب إذا قويت عليه الخواطر واستحوذ عليه الحس مرض وربما مات ، ولا ينفعه إلا الحمية منها ؛ والفرار من مواطنها ، وهى الخلطة. فإذا اعتزل عن الناس واستعمل الفكرة نجح دواؤه واستقام قلبه ، وإلا بقى سقيمًا حتى يلقى الله بقلب سقيم بالشك والخواطر الرديئة ، نسأل الله العافية .

قال الجنيد رضى الله عنه : أشرف المجالس الجلوس مع الفكرة فى ميدان التوحيد .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : ثمار العزلة الظفر بمواهب المنة ، وهى أربعة : كشف الغطاء ، وتنزل الرحمة ، وتحقق المحبة ، ولسان الصدق فى الكلمة . قال الله تعالى :

(فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَهَبْنَا لَهُ)[2] الآية .

---

(١) الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) مريم : ٤٩ .

فوائد الخلوة

واعلم أن فى الخلوة عشر فوائد :

الفائدة الأولى : السلامة من آفات اللسان ، فإن من كان وحده لا يجد معه من يتكلم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام :

« رَحِمَ اللهُ عَبْدًا سَكَتَ فَسَلِمَ ، أَوْ تَكَلَّمَ فَغَنِمَ » .

ولا يسلم فى الغالب من آفاته إلا من آثر الخلوة على الاجتماع . وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : إذا رأيت الفقير يؤثر الخلوة على الاجتماع ، والصمت على الكلام ، والصيام على الشبع ، فاعلم أن حبجه قد عسل . وإذا رأيته يؤثر الخلطة والكلام والشبع على ضدها ، فاعلم أن حبجه خاو . وقال فى القوت : وفى كثرة الكلام : قلة الورع ، وعدم التقوى ، وطول الحساب ، ونشر الكتاب ، وكثرة الطالبين ، وتعلق المظلومين بالظالمين ، وكثرة الأشهاد من الكرام الكاتبين ، ودوام الإعراض عن الملك الكريم ، لأن الكلام مفتاح كبائر اللسان ، وفيه الكذب ، وفيه الغيبة والنميمة ، والزور والبهتان . ثم قال : وفى الخبر :

« أَكْثَرُ خَطَايَا ابْنِ آدَمَ فى لِسَانِهِ ، وأَكْثَرُ النَّاسِ ذُنُوبًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَكْثَرُهُمْ خَوْضًا فيما لَا يَعْنِي » .

الفائدة الثانية : حفظ البصر ، والسلامة من آفات النظر ، فإن من كان معتزلا عن الناس سلم من النظر إليهم وإلى ما هم منكبون عليه من زهرة الدنيا وزخرفها . قال تعالى :

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ)[1] .

---

(١) طه : ١٣١ .

فتمنع بذلك النفس من التطلع إليها والاستشراف لها ومنافسة أهلها .

وقال محمد بن سيرين رضى الله عنه : إياك وفضول النظر ، فإنها تؤدى إلى فضول الشهوة .

وقال بعض الأدباء : من كثرت لحظاته دامت حسراته .

وقالوا : إن العين سبب الحَيْن : أى الهلاك ، ومن أرسل طرفه اقتنَصَ حَتْفه ، وإن النظر بالبصر إلى الأشياء يوجب تفرقة القلب اهـ .

الفائدة الثالثة : حفظ القلب وصونه عن الرياء والمداهنة وغيرهما من الأمراض . قال بعض الحكماء : من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راءاهم ، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا فهلك كما هلكوا . وقال بعض الصوفية : قلت لبعض الأبدال المنقطعين إلى الله كيف الطريق إلى التحقيق ؟ قال : لا تنظر إلى الخلق فإن النظر إليهم ظلمة .

قلت : لابد لى ؛ قال فلا تسمع كلامهم فإن كلامهم قسوة . قلت لابد لى ، قال فلا تعاملهم فإن معاملتهم خسران وحسرة ووحشة . قلت : أنا بين أظهرهم لابد لى من معاملتهم ، قال فلا تسكن إليهم فإن السكون إليهم هَلَكة . قلت هذا لعله يكون . قال : يا هذا تنظر إلى اللاعبين ، وتسمع كلام الجاهلين ، وتعامل البطالين ،وتسكن إلى الهالكين وتريد أن تجد حلاوة الطاعة وقلبك مع غير الله . هيهات، هذا لايكون أبدًا ، ثم غاب عنى .

وقال القشيرى رضى الله عنه : فأرباب المجاهدة إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات أى من الدنيا ، قال وهذا أصل كبير لهم فى المجاهدات فى أحوال الرياضة .

الفائدة الرابعة : حصول الزهد فى الدنيا والقناعة منها ، وفى ذلك شرف العبد وكماله ، وسبب محبته عند مولاه . لقوله صلى الله عليه وسلم :

« ازْهَدْ فى الدُّنْيَا يُحِبَّك الله ، وازْهَدْ فِيمَا فى أَيْدِى النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ » اهـ .

ولا شك أن من انفرد عن الناس ولم ينظر إلى ما هم فيه من الرغبة فى الدنيا

والانكباب عليها ، يسلم من متابعتهم فى ذلك ، ويسلم من متابعة الطباع الرديئة والأخلاق الدنيئة ، وقل من يخالطهم أن يسلم مما هم فيه .

وقد روى عن عيسى عليه السلام : لا تجالسوا الموتى فتموت قلوبكم ، قالوا من الموتى يا روح الله ؟ قال المحبون للدنيا الراغبون فيها .

الفائدة الخامسة : السلامة من صحبة الأشرار ، ومخالطة الأرذال ، وفى مخالطتهم فساد عظيم وخطر جسيم ، ففى بعض الأخبار :

« مَثَلُ الْجَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الكِيرِ إِذَا لَمْ يَحْرِقْكَ بِشَرَرِهِ عَلِقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ » .

وقال سيدى عبد الرحمن المجذوب رضى الله عنه : الجلسة مع غير الأخيار ترذل ولو تكوْن صافيًا .

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : ياداود مالى أراك منتبذًا وحدانيًّا ؟ فقال : إلهى قَلَيْتُ الخلق من أجلك ، فقال : ياداود كن يقظان ، وارتَدْ لنفسك إخوانًا ، وكل أخ لا يوافقك على مسرتى فلا تصحبه ، فإنه لك عدو يقسِّى قلبك ويباعدك منى اهـ .

فإن أردت الصحبة فعليك بصحبة الصوفية ، فإن صحبتهم كنز لا نفاد له .

قال الجنيد رضى الله عنه : إذا أراد الله بعبد خيرًا أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء .

وقال آخر : والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح .

الفائدة السادسة : التفرغ للعبادة والذكر والعزم على التقوى والبر ، ولا شك أن العبد إذا كان وحده تفرغ لعبادة ربه وانجمع عليها بجوارحه وقلبه لقلة من يشغله عن ذلك .

قال فى القوت : وأما الخلوة فإنها تفرغ القلب من الخلق ، وتجمع الهم بالخالق ، وتقوّى العزم على الثبات إلخ كلامه .

الفائدة السابعة : وجدان حلاوة الطاعات ، وتمكن لذيذ المناجاة لفراغ سره ، وهذا مجرب صحيح .

قال أبو طالب : ولا يكون المريد صادقًا حتى يجد فى الخلوة من الحلاوة والنشاط والقوة ما لا يجده فى العلانية ، وحتى يكون أنسه فى الوحدة وروحه فى الخلوة ، وأحسن أعماله فى السر اهـ .

الفائدة الثامنة : راحة القلب والبدن ، فإن فى مخالطة الناس ما يوجب تعب القلب بالاهتمام بأمرهم ، وتعب البدن بالسعى فى أغراضهم ، وتكميل مرادهم وإن كان فى ذلك الثواب ، فقد يفوته ما هو أعظم وأهم ، وهو جمع القلب فى حضرة الرب .

الفائدة التاسعة : صيانة نفسه ودينه من التعرض للشرور والخصومات التى توجبها الخلطة ، فإن للنفس تولعًا وتسارعًا للخوض فى مثل هذا إذا اجتمعت بأرباب الدنيا وزاحمتهم فيها ، وللشافعى رضى الله عنه :

وَمَنْ يَذُقِ الدُّنْيَا فإِنِّى طَعِمْتُهَا ... وَسِيقَ إِلَىَّ عَذْبُهَا وَعَذَابُهَا
فَلَمْ أَرَهَا إِلّا غُرُورًا وَبَاطِلًا ... كَما لَاحَ فى ظَهْرِ الْفَلاةِ سَرَابُهَا
وَمَا هِىَ إِلَّا جِيفَةٌ مُسْتَحِيلَةٌ ... عَلَيْهَا كِلابٌ هَمُّهُنَّ اجْتِذَابُهَا
فَإِنْ تَجْتَنِبْهَا عِشْتَ سِلْمًا لِأَهْلِهَا ... وَإِنْ تَجْتَذِبْهَا نَاهَشَتْكَ كِلابُهَا
فَطُوبَى لِنَفْسٍ أَوطَأَتْ قَعْرَ بَيْتِهَا ... مُغَلَّقَةَ الأَبْوَابِ مُرْخًى حِجَابُهَا

الفائدة العاشرة : التمكن من عبادة التفكر والاعتبار ، وهو المقصود الأعظم من الخلوة . وفى الخبر :

« تَفَكُّرُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سَبْعِينَ سَنَةً » .

وكان عيسى عليه السلام يقول : طوبى لمن كان كلامه ذكرًا ، وصمته تفكرًا ، ونظره عبرة ، وإن أكْيَس الناس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت .

وقال كعب : من أراد شرف الآخرة فليكثر من التفكر . وكان أفضل عبادة أبى الدرداء التفكر ، وذلك لأنه يصل به إلى حقائق الأشياء وتبيين الحق من الباطل ، ويطلع بها أيضًا على خفايا آفات النفوس ومكائدها وغرور الدنيا ، ويتعرف بها وجوه الحيل فى التحرز عنها والطهارة منها .

قال الحسن رضى الله عنه : الفكرة مرآة تريك حَسَنك من سيئك ، ويطلع بها أيضًا على عظمة الله وجلاله إذا تفكر فى آياته ومصنوعاته ، ويطلع بها أيضًا على آلائه ونعمائه الجلية والخفية ، فيستفيد بذلك أحوالاً سنية ، يزول بها مرض قلبه ، ويستقيم بها على طاعة ربه ، قاله الشيخ ابن عباد رضى الله عنه : فهذه ثمرات عزلة أهل البداية . وأما أهل النهاية فعزلتهم مصحوبة معهم ولو كانوا وسط الخلق ، لأنهم رضى الله عنهم أقوياء محجوبون بالجمع عن الفرق ، وبالمعنى عن الحس ، استوى عندهم الخلوة والخلطة ، لأنهم يأخذون النصيب من كل شىء ، ولا يأخذ النصيب منهم شيئًا . وفى هذا المعنى قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

الْخَلْقُ نُوَّارٌ وَأَنَا أَرْعَيْتُ فيهِمُ هُم الْحُجُبُ الأَكْبَرُ وَالمَدْخَلُ فِيهِمُ

حجاب الروح

فإن أضاف المريد إلى العزلة الصمت والجوع والسهر ، فقد كملت ولايته ، وظهرت عنايته ، وأشرقت عليه الأنوار ، وانمحت من مرآة قلبه صور الأغيار . وقد أشار الشيخ إلى بعض ذلك متعجبًا من ضده فقال :

[كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟] .

يشرق : بضم الياء أى يستنير ويضىء ، وصور الأكوان : أشخاصها وتماثيلها الحسية والمعنوية ، والأكوان : أنواع المخلوقات دقت أو جلّت ، ومنطبعة : أى ثابتة ، وانطبع الشىء فى الشىء : ظهر أثره فيه ، والمرآة بكسر الميم : آلة صقيلة ينطبع فيها ما يقابلها ، فكلما قوى صقلها قوى ظهور ما يقابلها فيها ، واستعيرت هنا للبصيرة التى هى عين القلب التى تتجلى فيها الأشياء حسنها وقبيحها .

قلت : جعل الله قلب الإنسان كالمرآة الصقيلةينطبع فيها كل ما يقابلها وليس لها إلا وجهة واحدة ، فإذا أراد الله عنايته بعبد شغل فكرته بأنوار ملكوته وأسرار جبروته ، ولم يعلق قلبه بمحبة شىء من الأكوان الظلمانية والخيالات

الوهمية ، فانطبعت فى مرآة قلبه أنوار الإيمان والإحسان ، وأشرقت فيها أقمار التوحيد وشموس العرفان ، وإلى ذلك أشار الششترى فى بعض أزجاله بقوله :

أغْمِضِ الطَّرْفَ تَرَى وَتَــلُوحُ أَخْــبــارُكْ
وافْنَ عَنْ ذِى الوَرَى تَبْدُو لَكَ أسْــرارُكْ
وَبِــصَــقْــلِ المِــرَا يَــهْ يَـزُولُ إِنكــارُك

ثم قال :

الفُلْكُ فِيــكَ يَــدورُ وَيُــضِــىء وَيَــلْمَــعْ
والشُّمــوسُ والبُــدورُ فِيــكَ تَغِيبُ وتَــطْلُعْ

أى وبصقل مرآة قلبك يزول إنكارك للحق فتعرفه فى كل شىء ، فيصير قلبك قطب فلك الأنوار ، فيه تبدو أقمار التوحيد وشموس العرفان .

وإذا أراد الله تعالى خذلان عبد بعدله وحكمته أشغل فكرته بالأكوان الظلمانية والشهوات الجسمانية ، فانطبعت تلك الأكوان فى مرآة قلبه ، فانحجب بظلماتها الكونية وصورها الخيالية عن إشراق شموس العرفان وأنوار الإيمان . فكلما تراكمت فيها صور الأشياء انطمس نورها واشتد حجابها ، فلا ترى إلا الحس ولا تتفكر إلا فى الحس ، فمنها ما يشتد حجابها وينطمس نورها بالكلية ، فتنكر وجود النور من أصله ، وهو مقام الكفر والعياذ بالله . ومنها ما يقل صداها ويرق حجابها ، فتقرّ بالنور ولا تشاهده ، وهو مقام عوام المسلمين ، وهم متفاوتون فى القرب والبعد وقوة الدليل وضعفه ، كل على قدر يقينه ، وقلة تعلقاته الدنيوية ، وعوائقه الشهوانية ، وخيالاته الوهمية .

وفى الحديث : « إِنَّ الْقُلُوبَ تَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ الحَدِيدُ ، وإِنَّ الإِيمان يَخْلَقُ » أى يبلى « كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الجَدِيدُ » الحديث .

وفى حديث آخر : « لِكُلِّ شَىْء مَصْقَلَةٌ ، ومَصْقَلَةُ الْقُلُوبِ ذِكْرُ اللهِ » .

وقال صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم أيضًا : « إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِى قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوداء ، فَإِنْ هو نَزَعَ واستَغْفَرَ صَقُلَتْ وإِنْ عادَ زِيدَ فِيها حتّى

تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، فَذٰلِكَ الرَّانُ الَّذِى ذَكَرَ اللهُ : (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يكْسِبُونَ)[1] . أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وإذا علمت أن القلب ليس له إلا وجهة واحدة ، إذا قابلها النور أشرقت ، وإذا قابلتها الظلمة أظلمت ، ولا تجتمع الظلمة والنور أبدًا ، علمت وجه تعجب الشيخ بقوله : كيف يشرق قلب بنور الإيمان والإحسان وصور الأكوان الظلمانية منطبعة فى مرآة قلبه ؟ فالضدان لا يجتمعان . قال الله تعالى :

(مَا جَعَلَ اللهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلبَيْنِ فى جَوْفِهِ)[2] .

فما لك أيها الفقير إلا قلب واحد . إذا أقبلت على الخلق أدبرت عن الحق ، وإذا أقبلت على الحق أدبرت عن الخلق فترحل من عالم الملك إلى الملكوت ، ومن الملكوت إلى الجبروت ، ومادمت مقيدًا فى هذا العالم بشهواتك وعوائدك فلا يمكنك الرحيل إلى ربك ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبّل بشهواته ؟] .

الرحيل : هو النهوض والانتقال من وطن إلى وطن ، وهو هنا من نظر الكون إلى شهود المكوّن ، أو من الملك إلى الملكوت ، أو من الوقوف مع الأسباب إلى رؤية مسبب الأسباب ، أو من وطن الغفلة إلى اليقظة ، أو من حظوظ النفس إلى حقول الله أو من عالم الأكدار إلى عالم الصفا ، أو من رؤية الحس إلى شهود المعنى ، أو من الجهل إلى المعرفة ، أو من علم اليقين إلى عين اليقين ، أو من عين اليقين إلى حق اليقين ، أو من المراقبة إلى المُشاهدة ، أو من مقام السائرين إلى وطن المتمكنين ، والمكبل هو المقيد ، والمراد بالشهوات كل ما تشتهيه النفس وتميل إليه .

قلت : الرحيل مع التكبيل لا يجتمعان ، فمادام القلب محبوسًا بالميل إلى شىء من هذا العرض الفانى ولو كان مباحًا فى الشرع فهو مقيد به ومكبل فى

---

(١) المطففين : ١٤ .

(٢) الأحزاب : ٤ .

وطنه ، فلا يرحل إلى الملكوت ، ولا تشرق عليه أنوار الجبروت ، فتعلق القلب بالشهوات مانع له من النهوض إلى الله لاشتغاله بالالتفات إليها ، وعلى تقدير النهوض معها تكون مثبطة له عن الإسراع بالميل إليها ، وعلى تقدير الإسراع ، فلا يأمن العثار معها لأنس النفس بها ، ولذلك ترك الأكابر لذتها حتى قال بعضهم : لدغ الزنابير على الأجسام المقرحة أيسر من لدغ الشهوات على القلوب المتوجهة اهـ .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : قلت هذا إن تعلق القلب بطلبها قبل حصولها وإلا فلا ، لعدم تعلق القلب بها . وقد تقدم فى حقيقة التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة . وكان شيخنا رضى الله عنه يقول : إن شئتم أن نقسم لكم لا يدخل عالم الملكوت من فى قلبه علقة اهـ .

فاقطع عنك يا أخى عروق العلائق ، وفر من وطن العوائق ، تشرق عليه أنوار الحقائق ، ولهذا كانت السياحة والهجرة من الأمور المؤكدة على المريد ، إذ الإقامة فى وطنه الحسى لا يخلو معها من التعلقات الحسية . وقد قالوا : الفقير كالماء إذا طال فى موطن واحد تغير ، وإذا جرى عذب ، وبقدر ما يسير فى الحس يسير فى المعنى ، وبقدر ما يسير القالب يسير القلب ، والهجرة سنة نبوية ، ومنذ هاجر النبى صلى الله عليه وسلم لم تكن له راحة إلا فى السفر للجهاد ، حتى فتح الله عليه البلاد وكذلك الصحابة رضوان الله عليهم لم يستقر فى وطنه إلا القليل منهم ، حتى فتح الله على أيديهم سائر البلاد وهدى الله بهم العباد ، فنفعنا الله ببركاتهم آمين .

دخول القلب حضرة القدس

وإذا رحل القلب من وطن شهوته ، وتطهر من لوث غفلاته ، وصل إلى حضرة ربه ، وتنعم بشهود قربه ، ولذلك أشار بقوله :

[أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟] .

الحضرة : هى حضور القلب مع الرب . وهى على ثلاثة أقسام : حضرة القلوب ، وحضرة الأرواح ، وحضرة الأسرار . فحضرة القلوب للسائرين ، وحضرة الأرواح للمستشرفين ، وحضرة الأسرار للمتمكنين . أو تقول : حضرة القلوب لأهل المراقبة ، وحضرة الأرواح لأهل المشاهدة ، وحضرة الأسرار لأهل المكالمة ، وسر ذلك أن الروح مادامت تتقلب بين الغفلة والحضرة كانت فى حضرة القلوب ، فإذا استراحت بالوصال سميت روحًا وكانت فى حضرة الأرواح ، وإذا تمكنت وتصفت وصارت سرًّا من أسرار الله سميت سرًّا وكانت فى حضرة الأسرار ، والله تعالى أعلم .

قلت : الحضرة مقدسة منزهة مرفعة لا يدخلها إلا المطهرون ، فحرام على القلب الجنب أن يدخل مسجد الحضرة ، وجنابة القلب غفلته عن ربه ، قال تعالى :

(يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)[1] .

أى لا تقربوا صلاة الحضرة وأنتم سكارى بحب الدنيا وشهود السوى وحتى تتيقظوا وتتدبروا ما تقولون فى حضرة الملك ، ولا جنبًا من جماع الغفلة وشهود السوى حتى تتطهروا بماء الغيب الذى أشار إليه الحاتمى رضى الله عنه ، كما فى الطبقات الشعرانية فى ترجمة أبى المواهب بقوله :

تَوَضَّأْ بِمَاءِ الْغَيْبِ إِنْ كُنْتَ ذَا سِرٍّ ... وَإِلَّا تَيَمَّمْ بِالصَّعِيدِ أَوِ الصَّخْرِ
وَقَدِّمْ إِمَامًا كُنْتَ أَنْتَ إِمَامَهُ ... وَصَلِّ صَلَاةَ الظُّهْرِ فى أَوَّلِ الْعَصْرِ
فَهٰذِى صَلَاةُ الْعَارِفِينَ بِرَبِّهِمْ ... فَإِنْ كُنْتَ مِنْهُمْ فَانْضَحِ الْبَرَّ بِالْبَحْرِ

يعنى تطهر من شهود نفسك بماء الغيبة عنها بشهود ربك ، أو تطهر من شهود الحس بشهود المعنى ، أو تطهر من شهود عالم الشهادة بماء شهود عالم الغيب ، أو تطهر من شهود السِّوى بماء العلم بالله ، فإنه يغيب عنك كل

---

(١) النساء : ٤٣ .

ما سواه . وإذا تطهرت من شهود السوى تطهرت من العيوب كلها ، وإلى ذلك أشار الششترى رضى الله عنه بقوله :

طَهِّرِ الْعَيْنَ بِالْمَدَامِعِ سَكْبًا مِنْ شُهُودِ السِّوَى تَزُلْ كُلُّ عِلَّهْ

وهذا الماء الَذى هو ماء الغيب هو النازل من صفاء بحار الجبروت ، إلى حياض رياض الملكوت ، فتغرقه سحائب الرحمة ، وتثيره رياح الهداية ، فتسوقه إلى أرض النفوس الطيبة ، فتملأ منه أودية القلوب المنوَّرة ، وخلجان الأرواح المطهَّرة ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

(أَنْزَلَ مِنَ السَّماء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِها فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا)[1] الآية .

شبه الحق تعالى العلم النافع بالمطر النازل من السماء ؛ فكما أن المطر تغمر منه الأودية والغدران ، وتجرى منه العيون والأنهار ، كل على قدر سعته وكبره ، كذلك العلم النافع نزل من سماء عالم الغيب إلى أرض عالم الشهادة ، فسالت به أودية القلوب ، كل على قدر طاقته ، وحسب استعداده ، وكما أن المطر يطهر الأرض من الأوساخ ، وهو معنى قوله تعالى : (فاحتمل السيل زبدًا رابيًا) أى مرتفعًا على وجه الماء ، كذلك العلم النافع يطهر النفوس من الأدناس والقلوب من الأغيار ، والأرواح من الأكدار والأسرار من لَوْث الأنوار وهذا الماء هو الذى أشار إليه بقوله : توضأ بماء الغيب إن كنت ذا سر : أى كنت صاحب سر ، والشهود شهود الوحدة ونفى الكثرة ، أو شهود العظمة بالعظمة ، ومن لم يتحقق بهذا فلا يمكنه التطهير بماء الغيب بالكلية لفقده ذلك الماء ، أو لعدم قدرته عليه ، فينتقل للتيمم الذى هو رخصة للضعفاء وطهارة المرضى ، وإلى ذلك أشار بقوله : وإلا تيمم بالصعيد أو بالصخر : أى وإن لم تقدر على الطهارة الأصلية ، وهى الغيبة عن السوى لمرض قلبك مع عدم صدقك فانتقل للطهارة الفرعية التى هى العبادة الظاهرية .

أو تقول : وإن لم تقدر على الطهارة الحقيقية التى هى الطهارة الباطنية فانتقل

---

(١) الرعد : ١٧ .

للطهارة المُجازية التى هى الطهارة الظاهرية .

أو تقول : وإن لم تقدر على طهارة المقرَّبين فانتقل لطهارة أهل اليمين .

أو تقول : وإن لم تقدر على طهارة أهل المحبة فانتقل لطهارة أهل الخدمة ، قوم أقامهم الله لخدمته ، وقوم اختصهم بمحبته :

(كُلًّا نُمِدُّ هٰؤُلَاءِ وَهٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا)[1] .

فطهارة أهل المحبة الفكرة والنظرة ،وطهارة أهل الخدمة بالمجاهدة والمكابدة ، بين عبادة ظاهرة كصلاة وصيام وذكر وتلاوة وتعليم وغير ذلك ، وبين عبادة خفية كخوف ورجاء وزهد وصبر وورع ورضى وتسليم ورحمة وشفقة ، وغير ذلك مما لا يظهر للعيان ، وهذا هو تصوف أهل الظاهر . وأما تصوف أهل الباطن : فهو الغيبة عن الأكوان بشهود المكوّن ، أو الغيبة عن الخلق بشهود الملك الحق ، وهو الذى عبر عنه الناظم بماء الغيب ، فكل من لم يدرك تصوف أهل الباطن فهو من أهل التيمم ، فإن كان مشغولا بالعمل الظاهر كالصلاة والصيام ونحوهما فهو كالمتيمم بالصعيد لظهورها كظهور أثر التراب على الجوارح ، وإن كان مشغولا بالعبادة الخفية كالزهد والورع ونحوهما فهو كالمتيمم بالصخر ، لعدم ظهورها فى الغالب ، كعدم ظهور أثر الصخر .

ولما أمرك بالغيبة عن السِّوَى خاف عليك إنكار الواسطة وإسقاط الحكمة ، فتقع فى الزندقة فقال : وقدم إمامًا كنت أنت إمامه ، والمراد بالإمام هو النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن كان على قدمه ممن جمع بين الحقيقة والشريعة ، فأمرك باتباع الشريعة المحمدية فى حال غيبتك عن السوى ، فيكون ظاهرك سلوكا وباطنك جذبًا ، ظاهرك مع الحكمة ، وباطنك مع القدرة ، ولابد أن تقتدى بإمام كامل سلك الطريقة على يد شيخٍ كامل ، يعلمك كيفية العمل بالشريعة ، ويدلك على الحقيقة ، وإلا بقيت مريضًا على الدوام تستعمل طهارة المرضى على الدوام . وانظر قول القرافى رضى الله عنه ، لما سقط على شيخ التربية قال : تيممت بالصعيد زمانًا ، والآن سقطت على الماء ، إذ لا تجد ماء

---

(١) الإسراء : ٢٠ .

الغيب ولا تقدر على استعماله إلا بصحبة أهل هذا الماء الذين شربوه وسكروا به ، ثم صحوا من سكرتهم ، وسلكوا من جذبتهم ، فتملكهم زمامَ أمرك وتنقادُ إليهم بكليتك ، بعد أن أطلعك الله على خصوصيتهم ، وكشف لك عن أسرارهم ، فشهدت لهم روحك بالتقديم وسرك بالتعظيم ، فتقدمهم أمامك بعد أن كنت أنت إمامهم ، وهم يطلبونك للحضرة ، وكذلك النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو الناس إلى الله وهم فارون أمامه ، فلما عرفوا الحق قدموه أمامهم ، وهذا معنى قوله : كنت أنت إمامه ، وقوله : وصل صلاة الفجر فى أول العصر ، وفى بعض النسخ : وصل صلاة الظهر فى أول العصر : أى اجمع ظهر الشريعة لعصر الحقيقة ، وفى أكثر النسخ : وصل صلاة الفجر فى أول العصر : أى ارجع إلى البقاء بعد كمال الفناء ، أو إلى السلوك بعد الجذب ، إذ الغالب على المريد أن يتقدمه السلوك ثم يأتيه الجذب ، فأوله سلوك وآخره جذب ، كما أن أول النهار صلاة الفجر وآخره صلاة العصر : أى ارجع إلى صلاة الفجر التى كانت فى أول نهارك فصلها فى آخر نهارك ، فارجع إلى السلوك الذى كان فى أول أمرك فاجعله فى آخر أمرك ، وهو معنى قولهم : منتهى الكمال مبدأ الشرائع . وقالوا أيضًا نهاية السالكين بداية المجذوبين ، ونهاية المجذوبين بداية السالكين. وقالوا أيضًا : علامة النهاية الرجوع إلى البداية وسيأتى الكلام على هذا فى محله إن شاء الله ، وقوله : فهذى صلاة العارفين بربهم ، لأنهم تطهروا الطهارة الأصلية وصلوا الصلاة الدائمة . قال الله تعالى :

(الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ)[1] .

فالعوام حدّ صلاتهم أوقاتهم ، والعارفون فى الصلاة على الدوام . قيل لبعضهم هل للقلوب صلاة ؟ فقال نعم ، إذا سجد لا يرفع رأسه أبدًا : أى إذا سجدت الروح لهيبة الجلال والجمال لا ترفع رأسها أبدًا ، وإليه أشار الششترى بقوله :

فَاسْجُدْ لِهَيْبَةِ الجلَالِ عِنْدَ التَّدانِي ... وَلْتَقْرَأْ آيَةَ الكَمَالِ سَبْعَ المثَانى

---

(١) المعارج : ٢٣ .

وقوله : فإن كنت منهم فانضح البر بالبحر : أى فإن كنت من العارفين المحققين فانضح بر شريعتك ببحر حقيقتك بحيث ترش على شريعتك من بحر حقيقتك حتى تغمرها وتغطيها ، فتصير الشريعة عين الحقيقة ، والحقيقة عين الشريعة ، حتى يصير عملك كله بالله ، والله تعالى أعلم ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وإذا دخل القلب حضرة القدس ومحل الأنس ، فهم دقائق الأسرار ، وملئ بالمواهب والأنوار ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[**أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته**] .

الرجاء : تمنى الشىء مع السعى فى أسبابه وإلا فهو أمنية . والفهم حصول العلم بالمطلوب ودقائق الأسرار غوامض التوحيد . والتوبة : الرجوع عن كل وصف ذميم إلى كل وصف حميد ، وهذه توبة الخواص . والهفوات : جمع هفوة وهى الزلة والسقطة .

قلت : فهم دقائق الأسرار لا يكون أبدًا مع وجود الإصرار .

أو تقول : فهم غوامض التوحيد لا يكون إلا بقلب فريد ، فمن لم يتب من هفواته ، ويتحرر من رق شهواته ، فلا يطمع فى فهم غوامض التوحيد ، ولا يذوق أسرار أهل التفريد .

قال أحمد بن أبى الحوارى : وسمعت شيخى أبا سليمان الدارانى رضى الله عنه يقول : إذا اعتادت النفوس ترك الآثام ، جالت فى الملكوت ورجعت إلى صاحبها بطرائف الحكمة من غير أن يؤدى إليها عالم علمًا .

قال أحمد بن حنبل : صدقت يا أحمد وصدق شيخك ، ما سمعت فى الإسلام بحكاية أعجب إلى من هذه :

« مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

وقيل للجنيد رضى الله عنه : كيف الطريق إلى التحقيق ؟ قال بتوبة تزيل الإصرار ، وخوف يقطع التسويف ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، وإهانة النفس بقربها من الأجل وبعدها من الأمل ، فقيل له بماذا يصل إلى هذا ؟ فقال : بقلب مفرد فيه توحيد مجرد اهـ . فإذا انفرد القلب بالله وتخلص

مما سواه فِهم دقائق التوحيد وغوامضه التى لا يمكن التعبير عنها ، وإنما هى رموز وإشارات لا يفهمها إلا أهلها ولا تفشى إلا لهم ، وقليل ما هم ، ومنْ أفشى شيئًا من أسرارها مع غير أهلها فقد أباح دمه وتعرض لقتل نفسه كما قال أبو مدين رضى الله عنه :

وَفى السِّرِّ أَسْرَارٌ دِقَاقٌ لَطِيفَةٌ تُرَاقُ دِمَانَا جَهْرَةً لَوْ بها بُحْنا

وقال آخر :

وَلِى حَبِيبٌ عزيز لا أَبُوحُ بِهِ أَخْشَى فَضِيحَةَ وَجْهِى يَوْمَ أَلْقَاهُ

وهذه الأسرار هى أسرار الذات وأنوار الصفات التى تجلى الحق بها فى مظهر الأكوان ، وإلى ذلك أشار بقوله :

[الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه] .

الكون : ما كونته القدرة وأظهرته للعيان ، والظلمة ضد النور وهى عدمية والنور وجودى ، وأناره أى صيره نورًا ، وظهور الحق تجليه .

قلت : الكون من حيث كونيته وظهور حسه كله ظلمة ، لأنه حجاب لمن وقف مع ظاهره عن شهود ربه ، ولأنه سحاب يغطى شمس المعانى لمن وقف مع ظاهر حس الأوانى ، وإليه أشار الششترى بقوله : لاتنظر إلى الأوانى ، وخض بحر المعانى ، لعلك ترانى ، فصار الكون بهذا الاعتبار كله ظلمة ، وإنما أناره تجلى الحق به وظهوره فيه ، فمن نظر إلى ظاهر حسه رآه جسماً ظلمانيًّا ، ومن نفذ إلى باطنه رآه نوراً ملكوتيًّا قال الله تعالى :

(ٱللَّهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ)[1] .

فتحصل أن قول الشيخ الكون كله ظلمة إنما هو فى حق أهل الحجاب ، لانطباع ظاهر صور الأكوان فى مرآة قلوبهم . وأما أهل العرفان ، فقد نفذت بصيرتهم إلى شهود الحق ، فرأوا الكون نورًا فائضاً من بحر الجبروت ، فصار

---

(١) النور : ٣٥ .

الكون عندهم كله نوراً ، قال الله تعالى :

(قُلِ انْظُرُوا ماذَا فى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ)[1] .

أى من نور ملكوته وأسرار جبروته ، أو من أسرار المعانى القائمة بالأوانى .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن اللهَ احْتَجَبَ عَنْ أَهْلِ السَّمَاءِ كما احْتَجَبَ عَنْ أَهْلِ الْأَرْضِ ، وَإِنَّ أَهْلَ المَلأ الْأَعْلَى لَيَطْلُبُونَهُ كما تَطْلُبونَهُ أَنْتُمْ ، وإِنَّهُ مَا حَلَّ فى شَىْءٍ وَلا غَابَ عَنْ شَىْءٍ » اهـ .

وهذه المعانى إنما هى أذواق لاتدرك بالعقل ولا بنقل الأوراق ، وإنما تدرك بصحبة أهل الأذواق ، فسلم ولا تنتقد :

وَإِذَا لَمْ تَرَ الْهِلَالَ فَسَلِّمْ لِأُنَاسٍ رَأَوْهُ بِالْأَبْصارِ

ثم قسم الناس فى شهود الحق على ثلاثة أقسام : عموم ، وخصوص ، وخصوص الخصوص ، فقال :

[فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده أو قبله أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار ، وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار] .

فأهل مقام البقاء يشهدون الحق بمجرد وقوع بصرهم على الكون ، فهم يثبتون الأثر بالله ولا يشهدون بسواه ، إلا أنهم لكمالهم يثبتون الواسطة والموسوطة ، فهم يشهدون الحق بمجرد شهود الواسطة أو عندها بلا تقديم ولا تأخير ولا ظرفية ولا مظروف :

مُذْ عَرَفْتُ الإِلٰهَ لَمْ أَرَ غَيْرًا وَكَذَا الْغَيرُ عِندنَا مَمنوعُ

وقال الشيخ مولاى عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه لأبى الحسن رضى الله عنه : ياأبا الحسن حدِّد بصر الإيمان تجد الله فى كل شىءٍ ، وعند كل شىءٍ ، ومع كل شىءٍ ، وقبل كل شىءٍ ، وبعد كل شىءٍ ، وفوق كل شىءٍ ، وتحت كل

---

(١) يونس : ١٠١ .

شيءٍ ، وقريبًا من كل شيءٍ ، ومحيطاً بكل شيءٍ ، بقرب هو وصفه، وبحيطة هى نعته ، وعدٍّ عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب بالمسافات ، وعن الدور بالمخلوقات ، وامحق الكل بوصفه : الأول والآخر والظاهر والباطن ، وهو هو هو :

« كَانَ اللهُ وَلَا شَيْءَ مَعَهُ ، وَهُوَ الآنَ عَلَى مَاكَانَ » اهـ .

وقال بعضهم : مارأيت شيئا إلا رأيت الله فيه ولم أره حديثا ، وإنما هو من قول بعض العارفين : فأهل السير من المريدين يشهدون الكون ، ثم يشهدون المكون عنده . وبأثره فيمتحق الكون من نظرهم بمجرد نظرهم إليه وهذا حال المستشرفين . وأهل مقام الفناء يشهدون الحق قبل شهود الحق بمعنى أنهم لايرون الخلق أصلا ، إذ لاثبوت له عندهم لأنهم لسكرتهم غائبون عن الواسطة ، فانون عن الحكمة ، غرقَى فى بحر الأنوار ، مطموس عليهم الآثار .

وفى هذا المقام قال بعضهم : مارأيت شيئا إلا رأيت الله قبله ، وأهل الحجاب من أهل الدليل والبرهان إنما يشهدون الكون ولا يشهدون المكوِّن لاقبله ولا بعده ، إنما يستدلون على وجوده بوجود الكون وهذا لعامة المسلمين من أهل اليمين ، قد أعوزهم : أى فاتهم وجود الأنوار ، ومنعوا منها ، وحجبت عنهم شموس المعارف بسحب الآثار بعد طلوعها وإشراق نورها ، لكن لابد للشمس من سحاب ، وللحسناء من نقاب ، ولله در القائل :

وما احْتَجَبَتْ إلاّ بِرَفْعِ حِجَابِها وَمِنْ عَجَبٍ أَنَّ الظُّهُورَ تَسَتُّرُ

وقال آخر :

لَقَدْ ظَهَرْتَ فَلَا تَخْفَى عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَلَى أَكْمَهٍ لَايُبْصِرُ الْقَمَرَا
لٰكِنْ بَطَنْتَ بِمَا أَظْهَرْتَ مُحْتَجِبا وَكَيْفَ يُعْرَفُ مَنْ بِالْعِزَّةِ اسْتَتَرَا

ثم احتجابه تعالى فى حال ظهوره مما يدلك على وجود قهره كما أشار إليه بقوله :

[مما يدلك على وجود قهره سبحانه أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه] .

قلت : من أسمائه تعالى القهار ، ومن مظاهر قهره احتجابه فى ظهوره ، وظهوره فى بطونه ، وبطونه فى ظهوره ، ومما يدلك أيضًا على وجود قهره أن احتجب بلا حجاب وقرب بلا اقتراب ، بعيد فى قربه ، قريب فى بعده ، احتجب عن خلقه فى حال ظهوره لهم ، وظهر لهم فى حال احتجابه عنهم ، فاحتجب عنهم بشىء ليس بموجود وهو الوهم والوهم أمر عدمى مفقود ، فما حجبه إلا شدة ظهوره ، وما منع الأبصار من رؤيته إلا قهارية نوره ، فتحصل انفراد الحق بالوجود ، وليس مع الله موجود . قال تعالى :

(كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ)[١] .

واسم الفاعل حقيقة فى الحال . وقال تعالى :

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)[٢] وقال تعالى : (فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ)[٣] وقال تعالى : (وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ)[٤] وقال تعالى : (وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ)[٥] وقال تعالى : (وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى)[٦] وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ)[٧] الآية ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أَفْضَلُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ :

أَلا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ
وَكُلُّ نَعِيمٍ لَا مَحَالَةَ زَائِلُ »

وقال صلى الله عليه وسلم : « يَقُولُ اللهُ تَعَالَى : يَا عَبْدِى مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِى ، فَيَقُولُ يَارَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ اللهُ : أَمَا إِنَّهُ مَرِضَ عَبْدِى فُلَانٌ فَلَمْ تَعُدْهُ ، فَلَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِى عِنْدَهُ ، ثُمَّ يَقُولُ :

---

(١) القصص : ٨٨ .
(٢) الحديد : ٣ .
(٣) البقرة : ١١٥ .
(٤) الحديد : ٤ .
(٥) الإسراء : ٦٠ .
(٦) الأنفال : ١٧ .
(٧) الفتح : ١٠ .

يَا عَبْدِى اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي ، ثُمَّ يَقُولُ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تُسْقِنِي » الحديث .

فدل الحديث على أن هذه الهياكل والأشخاص خيالات لا حقيقة لها ، فهى أشبه شيء بالظلال . قال الششترى رضى الله عنه :

الخَلْقُ خَلْقُكُمُ وَالأَمْرُ أَمْرُكُمُ فَأَىُّ شَيءٍ أَنَا لَكنْتُ مِنْ ظُلَلِ
مَا لِلْحِجَابِ مَكَانٌ فى وُجُودِكُم إِلَّا بِسِرِّ حُروفِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ
أَنْتُم دَلَلْتُم عَلَيْكم مِنْكُمُ وَلَكُمْ دَيْمُومَةٌ عَبَّرتْ عَنْ غَامِضِ الأَزَلِ
وقَدْ[1] عَرفْتُ بِكُمْ هٰذَا الْخبيرَ بِكُمْ أَنْتُمْ هُمُ ياحَيَاةَ الْقَلْب يَا أَمَلِى

قوله الخلق خلقكم إلخ : المراد بالخلق صور الأشباح ، وبالأمر سر الأرواح : أى الأشباح حكمتكم ، والأرواح سر من أسراركم ، فأنا لاوجود لى أصلا ، فأى شيء قدرت نفسى وجدتها لكم ومظهرًا من مظاهركم ، وإنما أنا ظلل من ظلل وجودكم ، ثم قال : ماللحِجاب مكان فى وجودكم : أى لا موضع للحجاب الحسى فى وجودكم ، إذ لو كان للحجاب مكان فى وجودكم لكان أقرب إلينا منكم وهو محال ، لأنك قلت :

(وَلقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَم مَاتُوسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ونَحنُ أَقْربُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)[2] .

وقوله : إلا بسر حروف إلخ . الاستثناء منقطع : أى لاموضع للحجاب الحسى بيننا وبينكم ، لكن حجاب القهرية ورداء العزة والكبرياء هو الذى منع الأبصار من رؤية نوركم الأصلى الجبروتى ، إذ لو ظهر ذلك النور لاضمحلت المكوِّنات ، ولاحترقت من نور السبحات ، ولهذا السر أمر الله سيدنا موسى عليه السلام حين طلب الرؤية بالنظر إلى الجبل ، لما أراد تعالى أن يتجلى له بشيء من ذلك ، فلما لم يثبت الجبل لشيء قليل منه علمنا أنه لاطاقة للعبد

---

(١) قد زيادة يقتضيها الوزن .
(٢) سورة ق الآية : ١٦ .

الضعيف فى هذه الدار على رؤية الواحد القهار إلا بواسطة الأكوان الكثيفة ، بعد أن نشر عليها الأردية المعنوية ، وهذا معنى قوله إلا بسر حروف (انظر إلى الجبل) أى إلا بحجاب القهرية المفهوم من سر قوله تعالى : (انظر إلى الجبل) ، أو إلا حجابًا ملتبسًا بسر الحكمة المفهوم من قوله تعالى (انظر إلى الجبل) وكأنه تعالى يقول ياموسى لن تقدر أن ترانى من غير حجاب الحكمة ولكن انظر إلى الجبل ، فإن أطاق ذلك فسوف ترانى أنت ، فلما تجلى له الحق تعالى من غير واسطة الحس جعله دكاء والله تعالى أعلم . وقال أيضًا فى هذا المعنى .

أنا شَيءٌ عجيبٌ لِمَنْ رَآنى وَأنَا المُحبُّ والحبِيبْ لَيْسَ ثَمَّ ثَانِى
يَاقَاصِدًا عَيْنَ الْخَبرْ غَطَّاهُ أَيْنُكَ الْخَمرُ مِنْكَ والْخَبَرَ والسِّر عِنْدَكْ
ارْجِع لِذَاتِكَ واعْتَبِرْ مَاثَمَّ غَيْرُكْ

فقوله ياقاصدًا عين الخبر : أى عين خبر التحقيق ، وقوله غطاه أينك : أى مكان وجودك الوهمى ، إذ لو غبت عن وجودك لوقعت على عين التحقيق ، وقوله الخمر منك أى شربة خمر المحبة منك وهذا كما قال : منى علىّ دارت كؤوسى . وقوله والخبر : أى والخبر عن عين التحقيق منك أيضًا ، وسر الربوبية عندك ، لأنك كنز مطلسم ، فإذا أردت أن تعرفه فارجع لذاتك واعتبر تجد الوجود كله واحدًا وأنت ذلك الواحد . قال الشاعر :

هٰذَا الوُجُودُ وَإنْ تَعَدَّد ظَاهِرًا وَحَيَاتِكُمْ مَا فِيهِ إلا أَنْتُمُ

وقال أيضًا رضى الله عنه : لقد فشا سرى بلا مقال ، وقد ظهر عنى فى ذا المثال ، ترى وجود غيرى من المحال ، وكل مادونى خيال فىّ متحد فى كل شىء ، أنا هو المحبوب وأنا الحبيب ، والحب لى منى شىء عجيب ، وحدى أنا فافهم سرى غريب ، فمن نظر ذاتى رآنى شىّ ، وفى حلا ذاتى طوانى طىّ ، صفاتى لاتخفى لمن نظر ، وذاتى معلومة تلك الصورة ، افن عن الإحساس ترى عبر ، فى السر والمعنى خفيت كى أظهر ، لأنه من ستر علىّ وقد اتفقت على هذا المعنى وهو سر .

الواحدة مقالات العارفين ، ومواجيد المحبين ، وأشعارهم كل على قدر ذوقه وشربه جزاهم الله عنا وعن المسلمين خيرًا ، ولايفهم هذه العبارات إلا أهل الأذواق والإشارات وحسب من لم يبلغ لها فهمه ، ولم يحط بها علمه أن يسلّم ويكل فهمها إلى أربابها ، وليعتقد كمال التنزيه وبطلان التشبيه ، لأن هذه المعانى أذواق لاتنال إلا بصحبة أهل الأذواق .

بطلان وجود الحجاب

ثم استدل على بطلان وجود الحجاب فى حقه تعالى بعشرة أمور متعجبًا من كل واحد لظهوره مع خفائه : لشدة ظهوره عند العارفين وشدة خفائه عند الغافلين الجاهلين ، فأشار إلى الأول بقوله :

[**كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى أظهر كل شىء**] .

والظاهر هو الباطن . مابطن فى عالم الغيب هو الذى ظهر فى عالم الشهادة ، فحياض الجبروت متدفقة بأنوار الملكوت ، انظر جمالى شاهدًا ، فى كل إنسان ، الماء يجرى نافذًا فى أس الأغصان ، تجده ماء واحدًا ، والزهر ألوان ، ياعجبًا كيف يعرف بالمعارف من به عُرِفت المعارف ؟

عجبت لمن يبغى عليك شهادة وأنت الذى أشهدته كل شاهد

ثم ذكر الثانى فقال :

[**كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر بكل شىء ؟**] .

بباء الجر أى تجلى بكل شىء فلا وجود لشىء مع وجوده فكيف يحجبه شىء ، والغرض أن لاشىء . قال صاحب العينية رضى الله عنه :

تَجَلَّيْتَ فى الْأشْياء حِينَ خَلَقْتَها فَهَا هِىَ مِيطَتْ عَنْكَ فِيها البَراقِعُ

ثم ذكر الثالث فقال :

[**كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الذى ظهر فى كل شىء ؟**] .

بقدرته وحكمته ، القدرة باطنة والحكمة ظاهرة ، فالوجود كله بين قدرة وحكمة ، وبين جمع وفرق ، وقد تقدم قوله بعضهم : مارأيت شيئًا إلا رأيت الله

فيه أى بقدرته وحكمته ، فلولا ظهور أنوار الصفات ماعرفت الذات ، ولولا الحس ماقبضتُ المعنى ، ولولا الكثيف ماعرفتُ اللطيف .

وللششترى رحمه الله : محبوبى قد عم الوجود ، وقد ظهر فى بيض وسود . وفى النصارى مع اليهود ، وفى الخنازير مع القرود ، وفى الحروف مع النقط ، أفهمنى قط ، أفهمنى قط .

ثم قال : عرفته طول الزمان ، ظهر لى فى كل أوان ، وفى المياه والدلوان ، وفى الطلوع وفى الهبوط ، أفهمنى قط ، أفهمنى قط .

ثم ذكر الرابع فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الظاهر لكل شىء] .

بلام الجر : أى المتجلى لكل شىء بأسرار ذاته وأنوار صفاته ، ولما تجلى لكل شىء ، وعرفه فى الباطن كل شىء ، وسبح بحمده كل شىء ، فلم يحجبه شىء عن شىء ، قال الله تعالى : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)[1] .

يقول بلسان حاله : سبحان المتجلى لكل شىء ، الظاهر بكل شىء ، يفقهه العارفون ويجهله الغافلون .

ثم ذكر الخامس فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء ، وهو الظاهر قبل وجود كل شىء ؟] .

فكل ماظهر فمنه وإليه فكان فى أزله ظاهرًا بنفسه ثم تجلى لنفسه بنفسه ، فهو الغنى بذاته عن أن يظهر بغيره أو يحتاج إلى من يعرفه غيره فالكون كله مجموع ، والغير عندنا ممنوع .

ثم ذكر السادس فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أظهر من كل شىء ؟] .

إذ لاوجود للأشياء مع وجوده ولاظهور لها مع ظهوره ، وعلى تقدير ظهورها فلا وجود لها من ذاتها فلولا ظهوره فى الأشياء ماوقع عليها أبصار :

---

(١) الإسراء : ٤٤ .

مَنْ لاوُجُودَ لِذَاتِهِ مِنْ ذَاتِهِ فَوُجُودُهُ لَوَلَاهُ عَيْنُ مُحَال

فالعبد فى حالة الحجاب تكون نفسه وجودها عنده ضروريًّا ، ووجود الحق تعالى عنده نظريًّا . فإذا عرف الحق وفنى عن نفسه وتحقق بزوالها صار عنده وجود الحق ضروريًّا ووجود نفسه نظريًّا . بل محال ضرورى .

قال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان ، فأغنانا عن الدليل والبرهان ، وإنا لانرى أحدًا من الخلق ، فهل فى الوجود أحد سوى الملك الحق ؟ وإن كان ولابد فكالهباء فى الهواء إن فتشتهم لم تجدهم شيئًا اهـ .

زاد فى لطائف المنن : ومن أعجب العجب أن تكون الكائنات موصلة إلى الله فليت شعرى هل لها وجود معه حتى توصل إليه ، أو هل لها من الوضوح ماليس له حتى تكون هى المظهرة له ، وإن كانت الكائنات موصلة له فليس ذلك لها من حيث ذاتها ، لكن هو الذى ولاها رتبة التوصيل فوصّلت ، فما وصّل إليه غير إلاهيته ، ولكن الحكيم هو واضع الأسباب وهى لمن وقف معه ، ولاينفذ إلى قدرته عين الحجاب ، فظهور الحق أجلى من كل ماظهر ، إذ هو السبب فى ظهور كل ماظهر ، وما اختفى إلا من شدة ماظهر .

* وَمِنْ شِدَّةِ الظُّهُورِ الْخَفَاء *

وإلى هذا المعنى أشار الرفاعى بقوله :

يامَنْ تَعَاظَمَ حَتَّى رَقَّ مَعْنَاهُ وَلَا تَرَدَّى رِداء الْكِبْرِ إلَّا هُو

أى يامن تعاظم فى ظهوره حتى خفى معناه .

ثم ذكر السابع فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو الواحد الذى ليس معه شىء] .

لتحقق وحدانيته أزلا وأبدًا :

« كانَ الله وَلَا شَيْءَ مَعَهُ وَهُوَ الآنَ عَلَى مَا عَلَيْهِ كانَ » (أَإِلٰهٌ مَعَ الله

تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)[١] .

أفى الله شك ؟ فكل ماظهر للعيان فإنما هو مظاهر الرحمن ، قال صاحب العينية رضى الله عنه :

تَجَلَّى حَبيبى فى مَرَائى جَمَالِهِ فَفِى كُلِّ مَرْءٍ لِلحَبيبِ طَلَائِعُ
فَلَمَّا تَجَلَّى حُسْنُهُ مُتَنَوِّعًا تَسَمَّى بأسمَاء فَهُنَّ مَطَالِعُ

فالحق تعالى واحد فى ذاته وفى صفاته وفى أفعاله ، فلا شىء قبله ، ولاشىء بعده ، ولاشىء معه .

ثم ذكر الثامن فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شىء وهو أقرب إليك من كل شىء] .

قال تعالى :

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ ماتُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيد) وقال تعالى : (وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلٰكِنْ لا تُبْصِرُون)[٢] وقال تعالى : (وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَىءٍ رَقِيبًا)[٣] وقال تعالى (إِنْ تَجْهَرْ بِالْقَولِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى)[٤] .

وقربه تعالى قرب علم وإحاطة وشهود لاقرب مسافة ، إذ لامسافة بينك وبينه ، وتقدم فى الحديث :

« وَإِنَّ اللهَ مَا حَلَّ فى شَىءٍ ولا غَابَ شَىْء » .

وقال سيدنا على كرم الله وجه : الحق تعالى ليس من شىء ، ولا فى شىء ، ولا فوق شىء ، ولاتحت شىء ، إذ لو كان من شىء لكان مخلوقًا ، ولو كان

---

(١) النمل : ٦٣ . (٢) الواقعة : ٨٥ .
(٣) الأحزاب ٥٢ . (٤) طه : ٥٧ .

فوق شيء لكان محمولا ولو كان فى شيء لكان محصورًا ، ولو كان تحت شيء لكان مقهورًا اهـ .

وقيل له : يا بن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أين كان ربنا ، أو هل له مكان ؟ فتغير وجهه وسكت ساعة ثم قال : وقولكم أين الله سؤال عن مكان وكان الله ولا مكان ، ثم خلق الزمان والمكان ، وهو الآن كما كان دون مكان ولازمان اهـ .

وقال أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : قيا، لى ياعلى بى قل ، وعلى دل ، وأنا الكل اهـ هذا كما فى حديث البخارى:

« يَقُول الله تَعَالَى : يَسُبُّ ابْنُ آدَمَ الدَّهْر وأنَا الدَّهْرُ ، بِيَدِى اللَّيْلُ والنَّهَارُ » .

وقال أيضًا صلى الله عليه وسلم :

« لَاتَسبُّوا الدَّهْرَ ، فَإِنَّ الله هُوَ الدَّهْرُ » .

وتفسيره ما فى الحديث قبله ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر التاسع فقال :

[كيف يتصور أن يحجبه شيء ولولاه لما ظهر وجود كل شيء] .

قال الله تعالى :

(وَخَلَقَ كُلَّ شَيْء فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا)[1] وقال تعالى : (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)[2] .

فكل ماظهر فى عالم الشهادة فهو فائض من عالم الغيب ، وكل مابرز فى عالم الملكوت فهو فائض من بحر الجبروت ، فلا وجود للأشياء إلا منه ، ولاقيام لها إلا به ، ولا نسبة لها معه ، إذ هى عدم محض ، وعلى توهم وجودها فهى حادثة فانية ولانسبة للعدم مع الوجود ، ولا للحادث مع القديم ولذلك تعجب الشيخ من اجتماعهما فقال :

---

(١) الفرقان : ٢ . (٢) القمر : ٤٩ .

[ياعجبًا كيف يظهر الوجود فى العدم ؟ أم كيف يثبت الحادث مع من له وصف القدم] .

قلت : وهذا هو العاشر ، فالوجود والعدم ضدان لايجتمعان ، والحادث والقديم متنافيان لايلتقيان . وقد تقرر أن الحق واجب الوجود ، وكل ماسواه عدم على التحقيق ، فإذا ظهر الوجود انتفى ضده وهو العدم ، فكيف يتصور أن يحجبه وهو عدم ؟ فالحق لايحجبه الباطل . قال تعالى :

(فَذٰلِكُمُ الله رَبُّكُمْ الحق فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إلَّا الضَّلَالُ)[1] .

فلا وجود للأشياء مع وجوده ، فانتفى القول بالحلول ، إذ الحلول يقتضى وجود السِّوى حتى يحل فيه معنى الربوبية . والفرض أن السِّوى عدم محض فلا يتصور الحلول ، وإلى هذا أشار فى العينية بقوله :

وَنَزِّهْهُ فى حُكْمِ الْحُلولِ فَمَا لَهُ سِوَى وإلى تَوحِيدِهِ الأَمْرُ رَاجِعُ

والقديم والحادث لايلتقيان ، فإذا قرن الحادث بالقديم تلاشى الحادث وبقى القديم .

قال رجل بين يدى الجنيد رضى الله عنه : الحمد لله ولم يقل رب العالمين ، فقال له الجنيد كمله يا أخى ، فقال له الرجل : وأى قدر للعالمين حتى يذكروا معه ؟ فقال الجنيد قله يا أخى ، فإن الحادث إذا قرن بالقديم تلاشى الحادث وبقى القديم اهـ .

فقد تقرر أن الأشياء كلها فى حيز العدم إذ لايثبت الحادث مع من له وصف القدم ، فانتفى القول بالاتحاد ، إذ معنى الاتحاد هو اقتران القديم مع الحادث ، فيتحدان حتى يكونا شيئًا واحدًا وهو محال ، إذ هو مبنى أيضًا على وجود السوى ، ولاسوى ، وقد يطلقون الاتحاد على الوحدة كقول ابن الفارض :

وَهامَتْ بِهَا رُوحِى بِحَيْثُ تَمَازَجَا اتحادًا وَلَا جِرْمٌ تَخَلَّلَهُ جِرْم

---

(١) يونس : ٣٢ .

فأطلق الاتحاد على اتصال الروح بأصلها بعد صفاتها ، ولذلك قال بعده ولا جرم تخلله إلخ فتحصل أن الحق سبحانه واحد فى ملكه ، قديم أزلى باق أبدى ، منزه عن الحلول والاتحاد ، مقدس عن الشركاء والأضداد ، كان ولا أين ولامكان ، وهو الآن على ماعليه كان ، ومما ينسب لسيدنا على كرم الله وجهه :

رَأَيْتُ رَبِّى بِعَيْنِ قَلبى ... فَقُلْتُ لَاشَكَّ أنْت أنْتَ
أنْتَ الذِى حُزْتَ كُلَّ أيْنٍ ... بِحَيْثُ لَا أيْنَ ثم أنْتَ
فَلَيْسَ لِلأيْنِ مِنْك أيْنٌ ... فَيَعْلُمُ الأيْنُ أيْنَ أنْتَ
وَلَيْسَ لِلْوَهْمِ فِيكَ وَهْمٌ ... فَيَعْلَمُ الوهْمِ كَيْفَ أنْتَ
أحَطْتَ عِلْمًا بِكُل شَىءٍ ... فَكُلُّ شَىءٍ أرَاهُ أنْتَ
وفى فَنَائى فَنَا فَنَائى ... وَفى فَنَائى وجَدْتُ أنْتَ

وسئل أبو الحسن النَّوَرِى رضى الله عنه أين الله من مخلوقاته ؟ فقال : كان الله ولا أين والمخلوقات فى عدم فكان حيث هو ، وهو الآن حيث كان ، إذ لا أين ولامكان ، فقال له السائل وهو على بن ثور القاضي فى قصة محنة الصوفية ، فما هذه الأماكن والمخلوقات الظاهرة ؟ فقال ؛ عزٌّ ظاهر ، وملك قاهر ، ومخلوقات ظاهرة به وصادرة عنه ، لاهى متصلة به ولامنفصلة عنه ، فرٌغ من الأشياء ولم تفرغ منه ، لأنهاَ تحتاج إليه وهو لايحتاج إليها ؛ قال له صدقت ؛ فأخبرنى ماذا أراد الله بخلقها ؟ قال : ظهور عزّته وملكه وسلطانه ، قال صدقت ؛ فأخبرنى مامراده من خلقه ، قال : ماهم عليه ، قال أوَيريد من الكفرة الكفر ؟ قال : أفيكفرون به وهوِكاره ؟ ثم قال : أخبرنى ماذا أراد الله باختلاف الشيع وتفريق الملل ؟ قال : أرادَ إبلاغ قدرته ، وبيان حكمته ، وإيجاب لطفه ، وظهور عدله وإحسانه اهـ المراد منه .

وفيه إشارة إلى أن تجليات الحق على ثلاثة أقسام : قسم أظهرهم ليظهر فيهم كرمه وإحسانه ، وهم أهل الطاعة والإحسان . وقسم أظهرهم ليظهر فيهم عفوه وحلمه ، وهم أهل العصيان من أهل الايمان . وقسم أظهرهم ليظهر فيهم نقمته

وغضبه ، وهم أهل الكفر والطغيان ؛ فهذا سر تجليه تعالى فى الجملة ، والله تعالى أعلم .

فذلكة : حاصل مااشتمل عليه هذا الباب من أول الكتاب ثلاثة أمور : عمل الشريعة والطريقة والحقيقة . أو تقول : عمل الإسلام والإيمان والإحسان ، وهى البداية والوسط والنهاية . ومن علامة النجح فى النهاية الرجوع إلى الله فى البداية ، فأمرك بالرجوع إليه والاعتماد عليه دون الاعتماد على العمل مع وجود العمل ، ثم دَلّك على الأدب فى حال التجريد والأسباب ، ثم نهاك فى حالة المسير عن شغل باطنك بكدّ التدبير ، فإنه سبب التكدير . ثم أنهضك إلى الاجتهاد فى الأعمال المطلوبة منك مع التقصير فيما هو مضمون لك ، ليكون سببًا فى فتح بصيرتك ، ومن جملة ماهو مضمون ماتطلبه بدعائك ، فلا تستعجل ماتأخر عن وقته ، ولاتيأس من رحمته . وإذا وعدك بشىء فلاتشك فى وعده لاتتهمه فيما ينزل بك من تعرفاته وقهره ، فهذه أعمال أهل البدايات اختلفت أجناسها باختلاف أحوالهم ، فقوله : من علامة الاعتماد على العمل إلى قوله : الأعمال صور قائمة كله من عمل الشريعة الذى هو مقام الإسلام ، وقوله الأعمال صورة قائمة إلى قوله الكون كله ظلمة هو من عمل الطريقة الذى هو مقام الإيمان ، ومداره على تخليص الباطن وتهذيبه فأمرك بالإخلاص والصدق وهو سر الإخلاص والخمول ، لأنه محله ومظهره ، والعزلة لتتمكن من الفكرة وتصفية مرآة القلب من صور الأكوان لتتهيأ لإشراق شموس العرفان ثم فتح لك الباب ورفع عنك الحجاب وقال لك هاأنت وربك ، وهو قوله : الكون كله ظلمة إلى آخر الباب ، فقد قطع لك توهم الحجاب من جميع الوجوه ، فجزاه الله أحسن جزائه ، ومتعه برضوانه مع أنبيائه وأحبائه ، وخرطنا فى سلوكهم مع كافة الأحباب آمين .

ولما أدخلك الحضرة دلك على آدابها فقال فى أول الباب الثانى مترجمًا عنها من بعض التلامذة بقوله : وقال رضى الله عنه : وجملة أبوابه خمسة وعشرون بابا وثلاث رسائل وجواب ثم مناجاة .